

المركز القومى للترجمة
عالم الطفل
دينيس بيبير
قصص الحيوان
الجزء الرابع
ترجمة
عزت عامر
1170
المشروع القومى للترجمة





المركز القومي للترجمة

عالم الطفل

حياة حيوانات كوكب الأرض من وجهة نظر مؤنسنة، تصور الحيوانات وهي تحس وتتأثر وتفكر وتتخيل وتتفاعل مع الطبيعة والبشر.

إنها مجموعة قصص من كل نوع حول حيوانات من كل نوع؛ من القطط حتى التماسيح، ومن النمس حتى الحمار، ومن الحمل حتى الأسد، في محاولة لرصد أهم جوانب حياة الحيوانات. قصص تعود إلى آلاف السنوات وأخرى أكثر حداثة.

وتتضمن المجموعة حكايات شعبية وأساطير عالمية تجسد الخرافات البدائية حول ما يدور في عالم الحيوانات، وقصصًا عن الحيوانات المستأنسة في الحقل والبيت وفي البرية بقلم كتّاب قصة مشهورين.

تصميم الغلاف: مروى يونس

قصص الحيوان

الجزء الرابع

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة عالم الطفل

المشرف على السلسلة: محمد الشحات

- العدد: ١١٧٠
- قصص الحيوان (الجزء الرابع)
- دينيس بيبير
- عزت عامر
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

ANIMAL STORIES

By: Dennis Pepper

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

E. mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 - 27354526. fax: 27354554

قصص الحيوان

الجزء الرابع

تأليـــــف: دينيس بيبير
ترجمــــــة : عزت عامـر



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

بيبير، دينيس.

قصص الحيوان (الجزء الرابع)/ تأليف: دينيس بيبير:

ترجمة: عزت عامر.

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩

١٢٠ص: ٢٠سم

١ - القصص الفرنسية

أ - عامر، عزت (مترجم ومقدم)

ب - العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع: ١١٤٤٧/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 1 - 367 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

٤- فى البرية

- لقاء 9
- فى عمق العشب 27
- الهابط بالباراشوت 39
- عجل البحر 55
- حيوان البحر وملكة السماء 63
- كلبة الهاسكى الأخيرة 79

4

فى البرِّيَّة

لقاء

چيمس بولارد

كان إيجا، الكنغر الأب، يستريح فى ظل شجرة صمغ أحمر. وبالقرب من جذور هذه الشجرة كان الكثير من حيوانات الكنغر قد كشطت خلال سنوات متعددة عدداً من الحفر الضحلة فى التربة الحمراء الرخوة. وكشط إيجا بدوره، حيث أزال سطح التربة الذى أدفأته الشمس وتمدد فى الأرض المكشوفة الأكثر برودة. وخلال النهار كان يغير فجوة بأخرى من وقت إلى آخر، بأن يكشط التربة فى كل مرة.

ومع اقتراب المساء نهض وجلس نصف منتصب، ونظر فى الغابة، التى كانت حينئذ مزينة بأضواء ممتدة

وظلال. وأنصت فلم يسمع سوى أصوات طيور وأصوات ريح وشجر.

وجعل يحبو بضع خطوات، واضعًا قدميه الأماميتين على الأرض منزلقًا بساقيه الطويلتين خطوة خطوة بجوارهما. وقضم العشب برفق. وهبط طائر الذُّعْرَة(*) ليثرثر ويهز أنفه منتبهًا لأى حشرة قد تقلقها شفتا الكنغر وهى تقضم العشب. وبمجرد أن رقص الطائر فى الهواء مطاردًا صرار الليل(**) الهائج، وأمسك به، هبط بخفة ليحط على كتف إيجا.

طوى إيجا إحدى أذنيه إلى الخلف ليستمع إلى الثرثرة التفسيرية التى يطلقها الذعرة، ثم وقف، وتحرك

(*) الذعرة wagtail : طائر صغير طويل الذنَب يهزه باستمرار. (المترجم)
(**) صرار الليل cricket: نوع من الحشرات ذات قرون الاستشعار الطويلة والأرجل الطويلة للقفز. (المترجم).

إلى الأمام عندما نشر الطائر جناحيه، ثم جعل يثب بخفة وسرعة خلال الأشجار.

وتوقف بجانب لفيف من أشجار الوَتَل(*)، ثم ظل ساكنًا عدة دقائق، وهو يراقب وينصت. وبلا حذر مر بين الأشجار وهبط بخطمه إلى بركة مظلَّلة ليلعق الماء.

غطست الشمس تحت حافة السماء، وفى وقت وجيز كست سقف الغابة باللون الذهبى، وكان طائر العقعق(**) يشدو هناك. وفى الشجيرات التى تنمو قريبًا من سطح الأرض انتشرت سقسقات الطيور الصغيرة(***) وطيور

(*) الوتل wattle : من أشجار أو جنبات الأقاقيا النامية فى أستراليا. (المترجم).

(**) العَقْعَق magpie : نوع من العصافير كثير الانتشار يمتاز بذيل طويل مدرج وريش أسود أو أزرق أو أخضر متداخل مع خطوط بيضاء، له طريقة فى المناداة أو التخاطب تشبه الثرثرة. (المترجم).

(***) طيور صغيرة tomtit: مثل القُرْقُف. (المترجم).

العيون الفضية(*) عندما كانت الطيور تتباطأ لتختار مجثمها الذى ستقضى فيه الليلة.

ومن البركة تقدم إيجا إلى الغابة المفتوحة، وهو يثب بتروٍّ دون تردد، مقتربًا من طريق يقطع مساره، ولاحظ شيئًا ضخمًا. وتوقف فجأة، وظل منتصبًا على الوسادتين الطويلتين لقدميه الخلفيتين، وحملق إلى سيارة مهجورة على الطريق.

راقب إيجا السيارة عدة دقائق. وببضع وثبات قصيرة اقترب أكثر فأكثر منها ثم وقف يراقب، وينصت، بفضول واضح، وكان من الواضح مع ذلك أنه مستعد لمغادرة المكان إذا حذرته حواسه من أى خطر. واستنشق الريح لكنها لم تحمل سوى الروائح العادية للغابة. اطمأن

(*) طيور العيون الفضية silver _ eyes : آكلة للمحاصيل الزراعية، تحتضن من ثلاث إلى أربع فقسات كل موسم. (المترجم).

وتحرك ووقف من جديد. وبعد أن أصبحت السيارة واضحة لنظره، بسطحها الناعم ونوافذها التى تعكس ألوان الغروب، توقف، ثم أكمل بقية المسافة على أقدامه الأربع، متحركًا بسلاسة وهدوء على الأرض المظلَّلة.

وبذلك وصل إلى الطريق ثم إلى جانب السيارة، حيث رفع نفسه من جديد ووقف بضع لحظات ينظر حينًا إلى السيارة ثم إلى الغابة. ولم يكن هناك ما ينذر بالخطر. وعندما نظر إلى السيارة بدت عليه الحيرة، وعندما نظر بعيدًا بدا عليه أنه يتحقق من كل ما حوله، مستنشقًا هواء الليل، وهو يهز أذنيه، ملقيًا نظرات سريعة على القريب والبعيد.

عندئذ ضرب خطمه بإحدى يديه، ثم رفع اليدين ليحك بهما أذنيه، ثم أمعن النظر من جديد فى تلك الآلة.

قفز أرنب عبر الطريق. ونظر إليه إيجا وقد بدأ

يتغذى، دون مبالاة. وطار خفاش بسرعة عبر السماء ثم انقض على فراشة ليل قريبة فوق الكنغر. تنهدت الريح والأشجار بهدوء.

توقف إيجا ثم تقدم ببطء إلى عجلة السيارة الأمامية القريبة. وفى منخريه ظهرت الروائح المختلطة للزيت والمطَّاط. ارتفع عاليًا فوق الحاجز الواقى لعجلات السيارة من الوحل، ونظر إلى غطاء المحرك والزجاج الأمامى للسيارة، ثم ضرب خطمه بيديه مرة أخرى. تراجع وتقدم ببطء بجانب السيارة، ثم وقف خلفها، ووقف من جديد ثم تقدم تجاه الجانب الآخر حتى جعله باب مفتوح يقف منتصبًا. بعد وقفة حذرة قصيرة استنشق طَرَفَ وسادة. وقد يكون تذكر رائحة الإنسان هناك، لأنه قطع خطوة حازمة إلى الخلف ووقف يراقب السيارة وقد أثار انتباهَه أمرٌ ما، وتصلبت أذناه إلى

الأمام. بعد بضع لحظات ترك يديه تتدليان من جديد،
وانزلق وتحرك بسلاسة، وبذلك أكمل الجولة.

وبنصف انحناءة بقامته، قضى دقيقة أو دقيقتين فى تنظيف نفسه، تنظيف، يضم الفراء على جانبيه، يلمس إحدى أذنية بحميمية، يدعك أنفه. ثم نظر عبر الطريق، ولم ينجح فى ملاحظة أو سماع الأرنب الذى كان يأكل هناك، ومع ذلك لمح على الفور الحركة الغامضة لرجل يقترب عبر الدرب المعتم.

وظل منحنياً للحظة وراقب الهيئة المبهمة من بعيد، ثم استدار بهدوء على قدميه، متوجها إلى الأشجار الداكنة. ولم يتعجل. ولم يفقد اهتمامه بالسيارة. وبعد بضع وثبات خفيفة وسريعة استراح بجانب كومة من تراب وبقايا شكّلها النمل وهو يحفر مكان سكنه، وهو ينظر إلى خلفه من فوق كتفيه، لكنه عدّل من وضعه على الفور

ونظر مباشرة إلى الطريق.

وعلى الأرض أتى إليه صدى وقع أقدام. راقب الرجل وهو يمشى بخطوات سريعة إلى السيارة. وعلى الجانب البعيد من السيارة ظل الرجل محجوباً لدقيقة أو دقيقتين. ثم ظهر وهو يطوف ببطء حول السيارة، ويتفحص الأرض. وبجانب العجلة الأمامية وقف يحدق أعلاه وحوله، ولأنه كان من رجال الغابة فإن نظرته السريعة، شملت كومة التراب والكنغر، وميزت بينهما. وبعد نحو نصف دقيقة حدّق إلى إيجا، الذى بادله التحديق. ثم دخل فى السيارة وانطلق بعيداً.

وراقب إيجا السيارة وهى تندمج فى الظلام، وظل ينصت حتى دمدم صوت اهتزازاتها بعيداً، فتحرك حينئذ ووقف ليأكل.

وتعمق الغبار مع هبوط الليل وظهرت النجوم.

واشتدت الريح، واهتزت أغصان الأشجار، ولكن بشكل متقطع مع سكون الأصوات من وقت إلى آخر كما لو أن هناك من ينصت. وخلال إحدى فترات السكون وصل إلى إيجا من خلال الأشجار صوت مفجوع لكلب برِّى. انحنى إيجا منصتًا حتى سمع الصوت مرة أخرى، ثم استدار ليبتعد تمامًا عن الصوت. وعندما توقف أنصت بعض الوقت قبل أن يأكل.

بعد ساعة تجدد عويل الدنج(*) الغامض قادمًا مع الريح إلى نطاق سمع إيجا. لكن فى نفس الوقت امتلأت أذنا الكنغر بصوت آخر. ومشى من جديد إلى جانب الطريق، وعندما كان يعبره توقف على الإسفلت لينظر إلى أحد الاتجاهين ثم إلى الاتجاه الآخر. واسترعى نظره بقوة وميض ضوء وسيطر على أذنيه صوت اهتزاز.

(*) الدنج dingo: كلب أسترالى برى ذو شعر بنى ضارب إلى الحمرة أو بنى ضارب إلى الصفرة. (المترجم).

وأصبح الوميض شعاعًا من الأضواء الرئيسية للسيارة، وأصبح الاهتزازُ الطنينَ الصادر عن محركها. وكان من المحتمل أن يهرب إيجا من الصوت، لكن ذلك لم يكن ممكنًا بالنسبة إلى الضوء، لأن تألقه بهره فى البداية ثم جعله عاجزًا عن الإبصار. وتوقف كما لو كان يتجنب الضوء، لكنه فشل فى رؤية ما أمامه. وقف من جديد وحدق إلى الضوء.

رأى الرجل أمام عجلة القيادة إيجا وهو مضاء بشكل متألق، وعيناه مثل جوهرتين. وقاد السيارة مقتربًا بدرجة تؤكد له أن الكنغر لن يتحرك. وضغط على الفرامل بسرعة ووقف محركه، غامرًا إيجا بالضوء، وهو لا يبعد عنه إلا بعشرين ياردة.

ولعدة لحظات جلس الرجل يراقب الكنغر، ومرة واحدة لمس بندقية بجانبه. لكنه هز رأسه، واسترخى، وانتظر أن

يتحرك إيجا، وهو يسلِّى نفسه فى غضون ذلك بارتياع الكنغر، مخدَّر الحواسِّ تقريبًا، وقد استعد مع ذلك فى موقف دفاعي، يتخذ وضع الوقوف منتصبًا. وكان على وشك أن يدور بالسيارة حول الحيوان عندما هز إيجا رأسه، وتوقف ثم حرر عينيه من الضوء واستدار كما لو كان حول محور، واختفى فى الظلام. وسمع الرجل صوت اصطدام الكنغر فجأة بالشجيرات وسقوطه وهو يثب فى صمت، ثم انطلاقه فى مساره.

استعاد إيجا حواسَّه ثم بدأ يأكل من جديد.

وعندما كان واقعًا فى أسر السيارة إلى حد ما، كانت الريح تحمل صوت أسى كلاب الدنج. والآن فى الخلف بعيدًا على الطريق، عبر كلبان بريَّان واستدارا وانطلقا يقتفيان أثر إيجا. واستنشقا بهدوءٍ المكان الذى كان يتجول فيه بحثًا عن طعامه، وشمًّا المسارات التى أحدثها

فى اتجاه الطريق، لكنهما كانا يفقدان الرائحة كلما كانت تتغلب عليها الرائحة الأقوى للغاز المحترق.

ومع ذلك فقد اقتفيا فى إحدى المرات الأثر الضائع، ثم تتبعاه حيث كان إيجا قد تعثر على نحو أعمى فى الشجرة القزمية. ومن ذلك الحين تتبعا الأثر بشكل صائب حتى سمعا صوت الكنغر وهو يتحرك بسرعة فى الظلام أمامهما.

التقط إيجا صوتًا خافتًا من ريح الليل، فنهض ونظر حيث كان الكلبان يقتفيان أثره. ورغم أنه لم يكن يستطيع رؤيتهما، فقد تعرف على أن فى الأمر ما يهدده. واستدار وانطلق مسرعًا ليبتعد.

وبدأ كلبا الدنج المطاردة. وما أسرع ما اقتربا من الكنغر إلى الدرجة الكافية لتمييز كتلته الداكنة التى ترتفع وتهبطء أمامهما. وظلا لبعض الوقت غير قريبين

منه بدرجة كبيرة، رغم أنه فى المقابل لم يجرِ بسرعة.

كان إيجا مُسِنًا، ولم يستطع لوقت طويل أن يحافظ على سرعته القصوى. ولم يكن من السهل أيضًا ترويعه. يمكنه الهرب من الخطر، دون ذعر، لكنه لم يكن يرغب إلا فى السلام. وإذا تجمّع عليه الخطر يمكنه أن يستدير فورًا لمحاربة محاصريه لا لمواصلة السير.

وبعد ميل أو أكثر فى تلك الغابة المظلمة قاد هذين الكلبين بخطوات واثقة مع الانعطاف أحيانًا عن الغابة المفتوحة ليمر من خلال طريق يطوقه دغل أو الاستدارة حول لفيف من أشجار الأوكالِبْتس(*) القزمية. وتوقف مرة أو مرتين وأنصت، فقط ليتحرك بسرعة عندما يتحقق من أن المطاردين يجدّون فى أثره.

(*) الأوكالِبْتس eucalyptus: شجر ذو أوراق عطرية يُستخرج منها زيت يُستخدَم لأغراض طبية ويُستخدم خشبه فى الصناعة. (المترجم).

لم يجد الكلبان صعوبة فى متابعته، وكان فى قدرتهما دائمًا عندما يفقدان رؤيته لفترة قصيرة أن يتحققا من وقع أقدامه. وإذا تحول بعيداً عن اتجاه الريح لا يحتاجان إلى رائحته لتقودهما، ويكفيهما فقط الأصوات المكتومة التى يُحدِثها على الأرض، وهو يبعثر الأوراق الجافة والعصىّ أو وهو يزيل الشجيرات المنخفضة.

وفى النهاية أصبح على إيجا أن يتوقف، ويتصدى، مرتفعًا على طَرَفَىْ قدميه وطَرَف ذيله. وبذلك تحدى المطارِدَين.

ولاحا قريبَين فى هرولة سريعة، يسعيان إليه، لكنهما عندما شاهداه همدا على الأرض. ينتظران. وفى الحال سار إيجا مبتعداً مسافة قصيرة.

وتوقف من جديد وارتفع على قائمتيه الخلفيتين. واقترب منه الكلبان مرة ثانية، وفى تلك المرة قرفصا على

أفخاذهما.

مرة أخرى تحرك إيجا وتوقف. وعندئذ اقترب الكلبان، وهما يتحركان بطريقة هادئة ماكرة، وأحاطا به كل واحد منهما على جانب منه. وانطلق أحدهما بسرعة ليقضمه من ردفيه. وعندما تحرك إيجا ليثأر لنفسه بدفعة قوية من حافره، وثب عليه الكلب الآخر من الجانب الثانى، وعضه وتراجع بسرعة.

ابتعدا يراقبان. فى اللحظة التالية استدار إيجا مبتعداً. لكنه توقف بعد وثبة أو وثبتين. عندئذ كانت خلفه شجرة، وأمامه طريق مفتوح.

اقترب كلبا الدنج، وتحركا بهدوء ودهاء مثلما فعلا من قبل، وكررا نفس مناورة الهجوم من كلا الجانبين. تركا الدماء تسيل من جانبه وجعلاه ينحنى فى محاولة لدفعه إلى الجرى من جديد. وبهذه الطريقة يمكنهما أن يزعجاه

بهجمات متكررة حتى يصبح مرهَقًا جدًا بحيث لا يمكنه المقاومة بقوة.

لكن إيجا كان يريد حينئذ أن يقاتل. وصدر من حنجرته أصوات خشنة عالية وعميقة عندما كان يشعر بمخالبه أن الكلبين عادا إلى الهجوم. لو استطاع أن يعوق العدو لحظة قد يكون ذلك كافيًا، حينئذ قد يكون هناك كلب واحد ممزق تقريبًا إلى اثنين، يعوى لنهايته هناك على الدرب.

وفشل فى الصمود أمام الموقف. وهبط أحد الكلبين ليستلقى على بطنه فوق الطريق، مراقبًا زميله وهو يتابع المحاولة.

عندئذ أتى من حول ملف فى الطريق شعاع مفاجئ من الضوء غمر الثلاثة أمام الشجرة. وأصبح إيجا عاجزًا من جديد لا يستطيع أن يرى بسبب الإضاءة

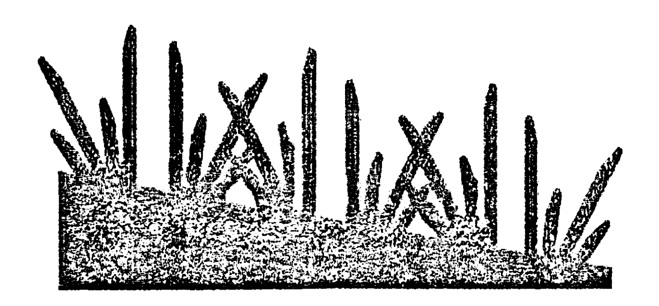
الأمامية لسيارة.

تخبَّط الكلب فى هجومه بسبب الضوء الباهر ودفع بمنكبه فخذى الكنغر. ترنح إيجا ثم بدأ فى الحركة، وبغير قصد توجه إلى مأواه. وغرق عواء موت الكلب فى هدير محرك السيارة بينما كان رجل الغابة، الذى استوعب الموقف، قد داس على معجل السرعة بملل وصدم الكلب، الذى كان مغموراً بالضوء ومنبهراً وملتصقًا بالأرض.

جمع إيجا قدراته على سرعة التمييز عندما كانت السيارة تئز منطلقة بسرعة. وفى الظلمة خلفه استدار مرة أخرى ثم انطلق حرًا فى الغابة يبحث عن مأوى.

فى عمق العشب

شارلز ج. د. روبرتس



كان المرج البنى الضبابى الغامق، مغسولاً بمسحة من أكثر درجات اللون البنفسجى شحوبًا، مرقطًا بزهرات البرسيم الحمراء، وزهرات الأقحوان البيضاء، وزهرات السوسن الكندى باللون البرتقالى الحاد، ومستويات العشب العميق تنعم بشمس يوليو. وبدا الطنين الكسول للنحل والذباب كما لو كان مستقطَرًا، مع الروائح العطرية المتقدة، من الزهرات وقمم العشب المشبَّعة بالشمس. وبدا الامتداد الهادئ، الواسع المزهر، الذى كان يتلألأ ويتوهج برقة فى الحرارة، المثالَ النموذجىً المناسب للصيف.

ومن وقت إلى آخر كان ظل سحابة صغير يتحرك بخفة عبر هذا المتسع. ومن وقت إلى آخر كانت هناك ريح خفيفة، تنقض هابطة عليه بلطف، فتحنى قمم العشب فى اتجاه واحد، وتنشر شحوبًا فضيًا مفاجئًا.

ولم يكن يبدو أن هناك ما يقطع رتابة النحل والذباب دائمَى الطنين سوى كائن حى واحد فى حركة مستمرة بين العشب والسماء. عُقَيْب(*) متوحد، بعيدًا أعلى حاجز القضبان(**)، كان يمحص ببطء، ببطء هنا وهناك، ويصطاد بتكاسل.

كل ذلك كان فى عالم ما فوق العشب، ولكن أسفل قمم العشب كان هناك عالم مختلف تمامًا، عالم مزدحم متشابك من الظلال الخضراء الباهتة. موشحة بأشعة الشمس التى تخترق العشب، ومكتظ بحياة كائنات صغيرة مراوغة. هنا بين الجذور البنية والبيضاء، والسيقان الخضراء المحتشدة والسويقات الموشَّاة،

(*) عُقَيْب marsh hawk: نوع من الصقور. (المترجم).
(**) حاجز القضبان rail fence: سياج مكون من أخشاب مقسمة موضوعة بشكل متقاطع. (المترجم).

تتجول قبائل الكائنات الأرضية الصغيرة مشغولة بشئونها وبرغباتها. ونادراً ما تفكر فى حياة الهواء المفتوح فوقها. وكل ما هو ضرورى لحياتها كان لديها هنا فى الظلام الضعيف الأخضر الدافئ، وعندما يتصادف أن يفصل أى شىء العشب فوقها حتى الأعماق التى تعيش فيها فإنها تهتاج مبتعدة بحنق جماعى.

وعلى حجر صغير، يتقارب العشب بكثافة حتى إن فأر حقل متوسط النمو، عندما انتهز الفرصة للنظر إلى أعلى، لم يلتقط سوى أقل ما يمكن من مزق السماء، وهو جالس ينظف سوالفه بيديه الرقيقتين. وظلت عيناه بالغتا الصغر الشبيهتان بقطرتى الندى تراقبان بشكل دائم، تحدقان خلال التشابك المظلل منتظراً ما قد يقترب على هيئة عدو أو فريسة. وفى ذلك الوقت تلقَّتْ ساقا عشب أو ثلاث فوق رأسه ضربة جعلتها تنخفض، وهبط جندب ضخم أخضر، وضوء غير مصقول يصدر عن إحدى

وثباته غير المنظورة، وانبطح على الحجر. وقبل أن يتمكن من المقاومة بسيقانه الطويلة والعودة إلى الصعود إلى منطقة أكثر أمانًا على قمم العشب، لحق به الفأر الصغير. واخترقت أسنانه البيضاء الحادة وجبته الخضراء، وركل الفريسة بأقدامه متشنجًا مرتين أو ثلاث مرات، وخبا اللمعان الخافت من عينيه الكبيرتين المرتبكتين الحمقاوين. وتناول الفأر وجبته بشهية، متخلصًا بلذة من السيقان الجافة وأغلفة الجناح. ثم جلس بين الفضلات الخضراء المتناثرة فوق الحجر، ثم واصل مرة أخرى تنظيف نفسه بدقة.

لكن الحياة بالنسبة إلى الفأر الصغير لم تكُنْ فى الواقع كلها مراقبة وصيدًا. وعندما أكمل تنظيف نفسه، وكان قد سمح بود لصَرَّار(*) أسود ضخم أن يزحف دون

(*) صَرَّار الليل cricket: نوع من الحشرات ذو قرون استشعار طويلة وأرجل طويلة للقفز. (المترجم).

أن يضايقه، بدأ فجأة فى الدوران بسرعة عدة مرات حول الحجر، وهو يتعقب ذيله الخاص. وعندما كان يسلى نفسه بهذه اللعبة التافهة، قفز فأر آخر، فى نفس حجمه هو نفسه، وقد يكون من نفس البطن، فوق الحجر، وأشبعه ضربًا. ودون تأخُّر رد بسرعة بنفس الأسلوب، ولعدة دقائق، كما لو أن اللعبة كانت مفهومة تمامًا، واصلا لعبتهما، يصدر عنهما صرير مرح صاخب رقيق، ومن الواضح أنهما كانا غافلين عن كل الأخطار... واهتزت قمم العشب فوق تلك اللعبة وصدر عنها صوت تحريك الريح لها بطريقة كان من المؤكد أن تثير الانتباه لو أن هناك أية عيون تراقب المشهد. لكن العُقّيب كان لا يزال يصطاد بكسل فى الجانب الآخر من المرج، ولم ينجم عن الطفولية أية مأساة. وبدا أنهما قد تعبا من اللعبة فى نفس اللحظة، لأنهما توقفا فجأة، وأسرعا

متباعدين فى العشب فى الاتجاهين المتقابلين للحجر، كما لو أنها قد تذكرا عملاً طُلب منهما منذ لحظة. وأيًا كان نوع العمل، بدا على الفأر الأول أنه نسيه سريعًا، لأنه فى نصف دقيقة كان قد عاد إلى الحجر من جديد، ليمشط سوالفه الرقيقة ويحك أذنيه. وبعد أن تم ذلك بما يرضيه هبط مثل الوميض من مقعده، واختفى فى حفرة صغيرة أسفل الحجر. وبعد أن فعل ذلك اندفع بسرعة عنكبوت أسود مكسوٌّ بالشعر وجرى بعيداً بين الجذور.

وبعد اختفاء الفأر بدقيقة أو دقيقتين جاء كائن بدا عملاقًا فى عالم أمة العشب. كان طوله ثلاثة أقدام تقريبًا، وفى سُمْك إصبع إنسان، وكان شكله بلون الفولاذ الرمادى الغامق، المخطط على شكل شبكة بإطار غامض ذى لون أصفر فاتح ضارب إلى البياض، كان شكلاً ينذر بالسوء حقًا، حيث إنه كان ينزلق بسهولة

وسرعة، فى منحنيات رشيقة الحركة، خلال العشب المتشابك القريب. وكانت الظلال الهادئة والأضواء الرقيقة تغير لونه مرتجفة وهو يمر، ولم يكن للحياة المفعمة بالنشاط أعلى العشب أن تلاحظ أبدًا اقترابه المشئوم. ودون أى صوت إنذار وصل مباشرة إلى الحَجَر، ورشق رأسه الضيق القاسى فى الحفرة.

كان هناك صوت صرير حاد، وفورًا خرج الرأس الضيق من جديد، مطرودًا بقوة وثبة الفأر المكافح. لكن أسنان الثعبان كانت متشبثة برقبة الحيوان الصغير. كان قَدَر عالم العشب قد أطبق عليه خلال نومه. وعلى رغم قَدَر الفأر فإنه كان طريدة. كان يعرف أنه لا يوجد سم فى تلك الأنياب التى أمسكت به، وكافح يائسًا ليفلت منها. وركل الأرض برجليه الخلفيتين القويتين بشدة بحيث أن الثعبان، الذى عرقلته فى البداية واقعة أن طوله

كان مجروراً خلفه نسبيًا فى ارتباك، أصبح عاجزاً عن السيطرة التامة على الفأر. وبغريزة صائبة - رغم أنه كان أول ثعبان يقابله فى حياته - جاهد الفأر لكى يصل إلى ظهر عدوه ليقطع العظم بالحواف الحادة لأسنانه. لكن هذا بالتحديد ما كان الثعبان على حذر منه ليمنعه. وخلال ثلاث مرات من الحركات السريعة المفاجئة المتشنجة نجح الفأر فى لمس جسم الثعبان، ولكن بقدميه فقط، ولم ينجح قط ولو مرة واحدة فى عمل ذلك بأسنانه الصغيرة المخربة. أمسك به الثعبان بتصلب، بضغط حازم مرن بحيث يصل إلى هذا الحد فقط ولا يتجاوز ما هو أبعد أبداً. وفى دقيقة أو دقيقتين أصبحت مقاومات الفأر الباسل أكثر ضعفًا.

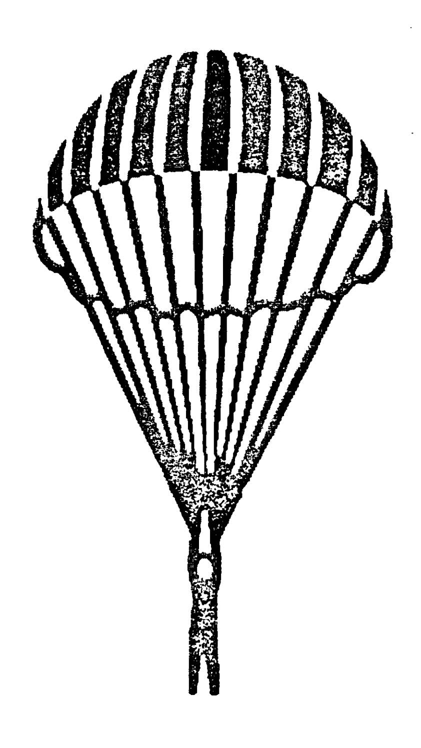
ومن ناحية أخرى، لم تحدث كل تلك التحركات العنيفة المفاجئة والالتواءات والقفز دون الكثير من الاضطراب

على قمة العشب. فلقد انحنت قمة العشب وزهرة البرسيم وزهرة الأقحوان والعشب الريشي، واهتزت وارتجفت إلى درجة الفوضى، وهو أمر لافت للنظر تماماً لمن يبحث عن الهدوء في بحر العشب الزاخر بالأزهار، وهو ما لفت نظر العُقَيْب، الذي تصادف في تلك اللحظة أنه كان جاثماً فوق عمود سياج مرتفع. انطلق الطائر، ذو الرأس الضئيل والعينين المروعتين وذو الريش المشذَّب، من مجثمه، وطار بخفة وسلاسة بجناحيه الطويلين فوق العشب ليرى ما يحدث. وعندما حام الظل السريع على قمم العشب، نظر الثعبان إلى أعلى. كان ذلك كافياً لأن يفهم معنى الظل المفاجئ. ونازعاً أنيابه بصعوبة من عنق الفأر، بدأ ينزلق مبتعداً تحت الجذور الأكثر كثافة وظلمة. ورغم تحركه السريع فإنه لم يكن في الواقع بالسرعة الكافية. وبمجرد اندفاع رأسه الضئيل تحت الجذور

سقط عليه الصقر، وجناحاه مرفوعان إلى أعلى. واندفعت مخالبه إلى أسفل، ليتشبث بمنتصف ظهر الثعبان بقبضة فولاذية. وفى اللحظة التالية كان الثعبان مرفوعًا بسرعة فى الهواء، يتلوى ويلتف يحاول عبثًا وبجنون أن يخترق درع الريش الصُّلْبة للصقر الذى أسره. وحمله الصقر طائرًا فوق بحر العشب إلى قمة عمود السياج، هناك حيث يلتهمه على راحته. وسحب الفأر، الذى كان مجروحًا وليس من المستبعَد شفاؤه، نفْسه إلى الخلف فى اتجاه الحفرة تحت الحجر. وفوق الحجر كانت قمم العشب، التى عادت هادئة من جديد، تطن بالذباب، وتتضوع بالعبير الدافئ فى الحرارة التى تستخلصه.

الهابط بالباراشوت

دارسي نيلاند



هب الإعصار قادمًا من كابريكون وظل المطر يهطل لمدة يومين وليلة.

وفى ظلمة الليلة الثانية، وهى تتلاشى مع اقتراب الفجر، حلَّ السكون. ولم يكن هناك سوى قرقرة وتقطّر عالم المطر، وبدأت الكائنات التى تعيش على الأرض تظهر خائفة من قسوة قوى الطبيعة.

وظهر الصقر، وهو يرتعش فى بؤس ويحوم مطوقًا بضراوة، يعانى من الجوع والضغينة. وانطلق فى عمق الفضاء يبحث فى الأرض عن غنيمة تكون ضحية للعاصفة: الخروف يستلقى مثل كومة من نسيج القَبُك(*) المبتل فى الحظائر المسيَّجة المشبعة بالماء، والعجل مثل كيس ملىء بالهواء يحمله التيار المتموج ليغسله فى

(*) القَبُك kapok: نسيج حريرى يؤخذ من شجرة السيبة (شجرة أمريكية استوائية ضخمة) ويستخدم هذا النسيج للغزل وحشو الوسائد والفرش. (المترجم).

مواجهة شجرة على مسطحات النهر، والأرنب مدفوعًا من مسكنه الغارق فى الماء وقد اعتُصر ميتًا عند جذع.

وبعين خبيرة تفحص الصقر جزر الأشياء المحطمة الطافية وبقايا البراعم الصغيرة وقد انحرفت على الشاطئين كعلامة على وجود سحلية أو ثعبان، ميت أو حى. لكن لم يكن هناك ما يبحث عنه. ومرة قبل ذلك كان هناك ديك، مبتل، يائس ومتروك فوق طوف من النفايات، بالغ الضعف لا يمكنه أن يقاوم وبالغ المرض فلا يهتم بالموت ولا بطريقة موته.

استراح الصقر على جرف حلق وادٍ وتمعن فى المنطقة بنظرة شرسة متجهمة. وأزعجه القمل فى جسمه مع لسعات القُرَّاص(*). وبقسوة جعل ينتزع بمنقاره ما

(*) القُرَّاص nettle : نبات ذو وبر شائك. (المترجم).

تحت ثنيتى جناحَيْه، أولاً فى جانب ثم فى الجانب الآخر. وكشط منقاره فى الحجر الخشن، وانحدر على الحافة. ثم صعد فى دائرة منزلقًا والجناحان منبسطان لتوسيع مجال رؤيته.

كانت الأرض صفراء وخضراء، وعلى المنبسطات كانت هناك سلاسل من البحيرات الشاطئيَّة كما لو أن السماء تشققت وسقطت على هيئة صفائح من الزجاج الأزرق. وكانت الشمس ساخنة والهواء ثقيلاً ورطبًا.

وطار الصقر منعطفًا إلى الجنوب وانحدر على مدفن شاسع للأشجار المنهارة. كان الإعصار قد دمر الأشجار الهزيلة، ومزقها، وأسقطها، ومزق أفرعها الجرداء، وغطى الأرض بالقطع المبعثرة، مثل ساحة معركة مليئة بالهياكل العظمية، أصبح لونها رماديًا بعد التعرض للتقلبات الجوية والتحلل.

قفز أرنب عشرين ياردة مثل عَجَلة تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل، وجذب المشهد الصقر الذى هبط بسرعة فى غطسة عمودية، لكن الأرنب اختفى فى جذع خشب مجوف، وبقى هناك، ولم تكن هناك أية علامة أخرى للحياة.

ويائسًا وخائر القوى هبط الصقر على غصن شجرة ضخم مكشوف وحدق وهو فى حالة عداء. وكانت الشمس نارًا فى جسده الذى يتضور جوعًا، والجذوع الخشبية تدخن بالبخار ولمعان الماء على الأرض يعكس كل شىء مثل المرايا. وفحصت عيناه اللتان تميزان الأشياء البعيدة الأرض ببطء، وهما تتنقلان بثقة تامة فاحصتين الأرض، ثم توقفتا. وفجأة انقض الصقر على الأرض وهاجم بعنف جسد فأرِ حقلٍ ميت كان بطنه منتفخًا وبخار خفيف كان ينحرف فى الهواء صادرًا من الحيوان الرمادى بجلده المغطى بالطين.

ولم يأكل الصقر كما يأكل عادة فى حالة الدم الدافئ المتدفق لأرنب فى فخ. ومطلقًا صيحة حادة برعب أعمى، لم يستمتع بطعامه على راحته فى سريِّة وحذر كما يفعل أمام خروف فاقد القدرة على الحركة فى الجفاف، عندما يمزق جزءًا جزءًا أحشاءه التى تُصْدِر بخارًا. مزق الفأر بنهم، وابتلع بسرعة، وانتهى من الوجبة فى بضع ثوان.

لكن الطعام أثار غيظ الصقر ولم يؤدِّ سوى إلى جعل شهيته أكثر شراسة، وأكثر شهوانية. طار إلى شجرة وفحص الريف بنهم. وانحرف فى الفضاء وصعد أعلى فأعلى فى دورة يقظة، باحثًا فى الامتداد الشاسع تحته، وحتى على حدوده القصوى.

وفى عمق الغرب كان شىء يتحرك على الأرض، بقعة. بدأ الصقر يراقبها، ووصلت البقعة إلى شجرة جوز، ثم إلى شجرة خوخ، ثم إلى كرة مخططة بالأبيض

والرمادى.

لم يبدأ الصقر هجومه على الفور. ومطيعًا لحاسته واصل الدوران محدقًا أسفله ناظرًا إلى البيت فى المزرعة والمبانى الإضافية، بريبة، ليرى جياد الجر فى بقعة أرض محاطة بسياج والدجاج والديكة فى خُمّ الدجاج، والخنازير فى الزريبة، وكانت الطاحونة الهوائية تدور بسرعة، وليترقب البشر فى أفنيتهم.

وبعيداً عن كل ذلك، نحو مائة ياردة أو أكثر، أسفله على طرف الحقل المتروك دون زرع، كانت هريرة تلعب، تقفز وتجرى وتتشقلب، تضرب بمخالبها ريشة وتتدحرج على ظهرها وهى تَعَضُّ الريشة بين مخلبيها الأماميَّين.

ومسعوراً بسبب الجوع، لكنه مع ذلك حذر للغاية، هبط الصقر بشكل حلزونى، وأعد نفسه... وانقض فى حركة سريعة مفاجئة. وكانت الهريرة مستندة وثابتة على

رأسها المائل على جانب واحد، غير منتبهة للخطر، ولكنها كانت مبهوتة بهذه التسلية الجديدة التى لم تجربها من قبل..وكما لو أن قطعة ورق نُفخت ومرت بها فى صوت حفيف خارق. وفى اللحظة التالية كان الصقر قد ثبّت براثنه فى فراء الهريرة وبطنها السمين، وصارعت الهريرة وتلوّت، وجاهدت لمقاومة القوة التى كانت تصعد بها.

وحينما كان الجناحان الكبيران للصقر يرفرفان، ويجدفان بإيقاع المجاديف، صعد الصقر مائلاً فى الفضاء بحمولته، وكانت الهريرة المحمولة جواً لأول مرة فى حياتها، والأرض تجرى تحتها مغبشة، تولول فى رعب شديد. وتلوّت هائجة عندما تلاشى العالم بعيداً، لكن براثن الصقر كانت مثل قبضة القاتل المأجور.

وتدفق الهواء مثل الماء فى عينى الهريرة وانطلق على

وجهها المثلثى ثم انساب إلى الخلف على الفراء المتماوج لجانبيها. وولولت بخوف لا حدود له، ثم حدث لها التواء مفاجئ، حتى إن الصقر اهتز فى مساره وهبط إلى مستوى آخر، أسفل من الأول بعدة أقدام.

ومحمولاً إلى أعلى فأعلى على الريح، انطلق الصقر إلى الغرب فوق سد يشبه زراً فضياً بعيداً أسفله. وبدأت الهريرة تصيح بنغمة جديدة. كانت معدتها مضطربة. وأحدث تدفق الهواء فى فمها ومنخريها طنيناً فى أذنيها ودواراً مؤلماً فى رأسها. وعندما استدار الصقر فى مداره الصامت، توهجت الشمس مثل لهب فى عينَى الهريرة، مما جعل إبصارها محصوراً فى اللون الرمادى عاجزاً عن الرؤية.

كانت الهريرة تعرف أنه ليس لها مكان هنا فى قلب الفضاء، وعرفت من غرائزها الفزعة أن اقترابها الوحيد

من السلامة والأمان مرتبط بذلك الشيء الذى يمسك بها.

حينئذ كان الصقر مستعداً لإسقاط فريسته. كان مدرَّبًا جيداً: الأرنب يسقط إلى أسفل، صفارة فى الفضاء، ليتحطم فى انتفاضة الموت على الأرض القاسية. ويتابع الصقر تناول وجبته اللزجة.

عندئذ على ارتفاع ألفَىْ قدم كان الطائر يحوم. وكانت الهريرة منتبهة بشكل مثير للذعر بما حدث من تغير، تطرف بعينيها مع خفقات الهواء المندفع تحت تأثير رفرفة الجناحين، ولا تسمع سوى هذا الصوت.

وبلا توقع توقفت، وكان الجناحان ساكنَين ممدودَين إلى الجانبين، لكنهما ثابتان، يميلان قليلاً مع الجسم المتوازن، وكان الذيل الشبيه بالمروحة هو فقط الذى يرتفع وينخفض مع تدفق التيارات.

وشعرت الهريرة بأن براثن الصقر ترتخى قليلاً، وإن ذلك كان الإنذار الموجَّه إليها. وانفتحت البراثن، لكن عند أول هزة خاطفة فى الحركة أكملت الهريرة التواءها وجرحت ساقَى الصقر وغرزت مخالبها فى لحمه مثل الصِّنَّارات المعقوفة لصيد الأسماك. وخلال الجزء التالى من الثانية كانت الهريرة قد أصبحت فى موقف أقوى، وجعلت سيطرتها مُحْكَمة، وقد غرزت كل مخلب سوى تلك الموجودة فى قدم كانت مدفوعة فى الفضاء، يضغط عليها الهواء الذى لا يُطاق. ثم حينئذ أصبحت المخالب فى هذه القدم مغروزة فى صدر الصقر.

وبصرخة ألم وذعر انقض الطائر فى جنون، هابطًا نحو مائة قدم مثل حجر ساقط. ثم صحَّح وضعه حينئذ، طائرًا فى حالة تأرجح سكرى جعلت تتلاشى مع دورانه.

نزلت قطرات دم من صدر الصقر وتقطرت من أسفل

مخلب الهريرة وتناثرت فى إحدى عينيها، مما جعلها تطرف، لكن الدم خرج وتجلط، دافئًا لزجًا. ولم تستطيع الهريرة أن تدير رأسها؛ كانت خائفة من المخاطرة بتغيير وضعها. وببطء أحدث الدم فوق عينها قشرة رقيقة مانعة للرؤية.

شعر الصقر بتشنج دلالة على الضعف، وأُضيف إلى ذلك ما يؤكد جوعه وحماسته لأن يقتل بأى ثمن الفريسة التى استولى عليها وحملها إلى هذا المكان لإعدامها. ومستحضراً المزيد من القوة بما لديه من ضراوة، بدأ يصعد من جديد، يحاول يائسًا أن يزيح الهريرة عن وضعها. لكن الوزن كان كبيراً إلى الدرجة التى منعته من الصعود. وأصيب جسمه بطىء الحركة بإرهاق شديد، ألم فى كل هيكلَىْ جناحيه. وتشبثت الهريرة متماسكة وهى تحدق أسفلها إلى الأرض الدوارة وتنتحب مذعورة.

ولعشر دقائق دار الصقر فى مستوى واحد، محبَطا ومرتبكًا. وكل ما كان يتمنى أن يفعله حينئذ هو التخلص من المرافقة المثبّتة فى ساقيه وجسمه. كان يتوق إلى الاستراحة، فترة راحة على أطول الأشجار، لكنه طار عاليًا فوق تلك الأشجار، لأنه كان يعرف أنه عاجز عن الحط فوقها. وكان منقاره مفتوحًا تحت تأثير تقطعات تنفسه الخشن. وهبط ثلاثمائة قدم. ولم تغير الهريرة، بحكمة الغريزة، من وضعها، لكنها جعلت وضعها مثل بعض الهابطين المتفوقين بالباراشوت.

وباندفاعة قوية واحدة حاول الصقر فى آخر الأمر، بضربة منقار وبرفرفة هائلة من جناحيه، أن يتخلص من راكبه، ونجح تقريبًا. وصدر صوت مواء من الهريرة وهى فى حالة خوف جنونىٍّ أمام عنف الصوت والاضطراب. وبتدلى ساقيها الخلفيتين فى الفضاء، وفى الهواء

الساحق، نُقلت بين منحنيات الطيران نحو دقيقتين. وعندئذ ثبّتت رسوخ مخالبها من جديد، بل جعلته أكثر رسوخًا مما كان.

وفى نوبة غضب هستيرى حاول الصقر مرة أخرى أن يرفع نفسه، وعلى الفور تقريبًا بدأ يهبط بسرعة فى دوامات منزلقة واسعة بطيئة أصبحت ضيقة أكثر فأكثر.

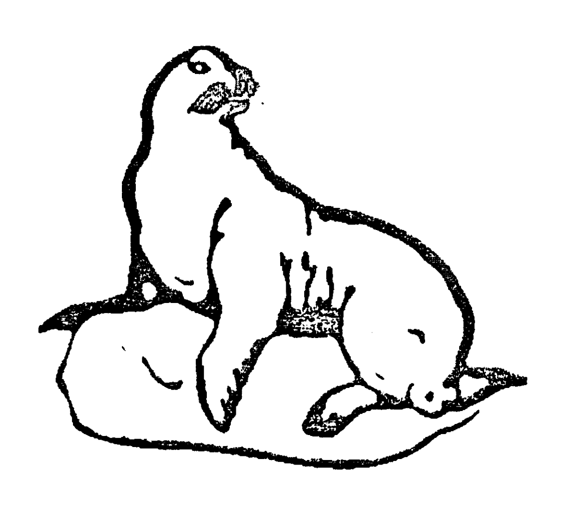
وكانت الهريرة هى الطيار حينئذ ولم يعد الصقر هو سفّاك الفضاء وملك السماء وسيد الريح. كان الألم يلف وينبض فى صدره. وصارع فى مواجهة السيطرة المتزعزعة على جناحيه ورعب قوته المتضائلة. ومع قلبه المتفجر من الإجهاد، وعينيه المنفوختين المضطربتين الصفراوين، هبط حتى أصبحت الأرض شاحبة تحته، وانتحبت الهريرة عندما رأت التألق الفضى للأسطح غير البعيدة، والأرض الممتدة، وأجمة العشب.

وطار الصقر ببطء وتثاقل واندفع ساقطًا والهريرة تتدحرج معه. ورقد الصقر ممددًا منهَكًا، وعنيناه منتبهتان فى شراسة وخوف شديد لخطر وضعه القسرى والغريب.

تهادت الهريرة مصابة بالدوار، لم يصبها أذى. نحو الأسقف الفضية، تولول بصوت مرتفع كما لو كان إجابة على صوت طفل.

عجل البحر

ليام أوفلاهيرتي



رفع عجل البحر رأسه فوق سطح الماء وهو يراقب باستغراق زورق تجديف يتم إلقاء شبكة منه، على مسافة قصيرة إلى الشرق. وكان هناك أربعة رجال فى الزورق. وقف أحدهم فى مؤخرة الزورق يرخى الشبكة. وواصل الثلاثة الآخرون التجديف برقة، حتى يحافظوا على الزورق مستقراً فى مواجهة التيار الشديد. ولاحظ المجدِّف الأقرب إلى المقدمة عجل البحر عندما كانت الشبكة قد تم إلقاؤها تقريباً. وفى الحال لعن وترك مجدافيه والتقط بندقية كانت ملقاة خلفه فى المقدمة، وصوّب نحو رأس عجل البحر وأطلق النار.

غطس عجل البحر عندما كانت الطلقة على وشك الخروج من فوهة البندقية. وبالكاد اختفى عندما مرقت طلقات الرصاص فى سطح البحر فى نفس البقعة التى كان رأسه ظاهراً فيها. وغطس بذيله أولاً عدة قامات، ثم بسط جسمه وسبح بأقصى سرعة تحت الماء حتى قاعدة

جرف مظلم شديد الانحدار. وهناك ارتفع إلى السطح وتوقف فى الماء وظهره إلى الصخرة. حينئذ كان آمنًا من أن يلاحظه أحد. وكان جسمه البنى الأغبر فى نفس لون الصخرة. وبدأ من جديد يراقب الزورق باستغراق.

جدّف الرجال مبتعدين إلى الشرق بعد أن ألقوا شبكتهم. وما أسرع ما اختفوا عن النظر خلف بروز رملى أعلى من سطح الماء. ومع ذلك ظل صوت تجديفهم مرتفعًا بعض الوقت. وكان الصوت العميق لدمدمة المجاديف وهى تدور حول أوتاد مساندها مميزة عن صوت ضربات المجاديف لسطح الماء.

وعندما كان آخر صدى ضئيل لتلك الأصوات يتلاشى فى الفجوات العلوية، اندفع عجل البحر مبتعداً عن الصخرة. وسبح بشكل عدائى نحو العوامة الصغيرة المنتفخة المصنوعة من جلد الخراف المطلى بالقطران التى

تركها الرجال طافية فى نهاية الحبل، فوق شبكتهم. وغاص تحت الماء عندما وصل إلى جانب العوامة. وهناك كانت الشبكة منشورة أمامه، مثل حائط من النسيج المخرم، يتأرجح متراخيًا إلى الأمام والخلف مع التيار. وفحص ثقوب الشبكة بشره. لقد كانت كلها خالية.

عندئذ مرت به سمكة سلمون ضخمة منطلقة بسرعة كبيرة اصطدمت بمنتصف الشبكة، التى انحنت بشدة بسبب الصدمة. واخترق رأسُ السمكة سيئة الحظ إحدى فتحات الشبكة حتى وصلت إلى الخيشومين. وهزت السمكة نفسها بعنف وبدأت تجاهد لتخلص نفسها. وكان جسمها الجميل يعكس أشعة الضوء التى تنساب خلال ظلمة الماء وهى تحاول أن تثب خارجة فى محاولاتها الجامحة للهروب. وكان عنفها فقط كافيًا لأن يجعل سجنها أكثر إحكامًا. ولم يلبث ذيلها أيضًا أن وقع فى فتحات الشبكة وضغط على بطنها. واستمرت السمكة

تتلوى فى دائرة أصبحت فضلاً عن ذلك أصغر. وفى نهاية الأمر أصبحت مغطاة من الأنف حتى الذيل بفتحات الشبكة، وكانت ممسوكة بإحكام حتى إنها لم تستطع أن تقاوم أكثر من ذلك. وتأرجحت السمكة بلا مقاومة مع الشبكة إلى الأمام والخلف مع التيار، منقطعة النفَس تحاول متشنجة أن تتنفس.

وانتظر عجل البحر حتى توقفت وثبات السمكة الحبيسة، عندئذ تقدم ليحصل على فريسته. وأخذ رأس سمكة السلمون بين فكيه وسحقه فى قضمة واحدة. وبعد أن حرر جسم السمكة من الشبكة بقطع كل فتحاتها حول السمكة، أخذها بين أسنانه وسبح نحو السطح. ولم يكن قد تجاوز منتصف المسافة إلى السطح حين هاجمه ثعبان ماء قنجر(*) ذو حجم عملاق.

(*) قنجر conger eel : أنقليس أو حنكليس وهو ثعبان بحرى كبير عديم القشر موجود فى مياه الأطلسى. (المترجم).

كان الثعبان قد جاء مباشرة فى حركة دوران سريعة من الأعماق بسرعة البرق، مثل لولب أسود هائل. وقذف بنفسه على قاعدة عنق عجل البحر، وأحاط به عدة مرات بطيات جسمه البالغ سبعة أقدام. وبينما كان يلتف حوله بكل قوته، تراجع برأسه وانقض على الفراء الأملس لعجل البحر بفكيه الكبيرين شبه الدائريّين. وسحبت أسنانه الحادة الدم من عدة أماكن.

وأصيب عجل البحر بذهول نتيجة الهجوم المفاجئ، لكنه واصل حركته ببطء نحو السطح إلى مسافة قصيرة، ثم بدأ يختنق تحت تأثير تطويق عدوه له بغاية الإحكام. وترك سمكة السلمون واستدار للدفاع عن نفسه. لم ينتظر الثعبان حتى يتلقى الهجوم المضاد، فتخلى عن ضغطه على رقبة عجل البحر، بمجرد أنْ رأى أنَّ حيلته قد نجحت. وطارد سمكة السلمون الميتة، التى كانت تتجه إلى السطح بعد ترك عجل البحر لها. ثم اختطف جسم

السمكة بدوره وهرب به نحو الأعماق. ومع ذلك ففى نفس تلك اللحظة وجد نفسه مسحوبًا بإحكام من أسفل بطنه بفكَّىْ عجل البحر.

ووصل عجل البحر بسرعة إلى السطح. ورفع رأسه عاليًا فوق الماء وبدأ يؤرجح عدوَّه المكبَّل من جانب إلى آخر، بالطريقة التى يهز بها كلبٌ فأرًا. تعلَّق الثعبان بسمكة السلمون فى البداية، بينما كان ينحنى ويتدلى مثل حبل راقص حول رأس عجل البحر. ثم أسقط جسم السمكة، الذى طفا مبتعدًا ببطء مع التيار، مع مجموعة من فتحات الشبكة الممزَّقة التى استمرت متعلقة بمنتصف جسمه.

وقذف عجل البحر بعدوّه فى الهواء بعد أن هزه بكامله. وانحنى جسم الثعبان فى قوس رشيق الحركة وهو يصل إلى أعلى نقطة فى صعوده. ثم سقط إلى

أسفل ورأسه فى المقدمة. وكان عجل البحر مستعداً فى هدوء لاستقباله، فقطع رأسه تماماً عن الجسم بانقضاضة واحدة من فكَّيه.

وغاص الجسم منزوع الرأس مباشرة إلى أسفل فى البحر عدة قامات، وكان يدور غالباً بنفس السرعة التى كان يدور بها عندما كان كاملاً. ثم فقد الاتجاه وقوة الدفع. ومع تفجر الدم من جرحه الواسع بدأ يهيم بلا هدف فى أقواس واسعة. وظل الرأس المفصول على سطح الماء، يحرك فكَّيه متشنجاً برهة من الوقت وهو يطفو مع التيار.

وسالت تيارات دم ضئيلة جداً من الجروح التى أصيب بها عجل البحر وهو متجه إلى سمكة السلمون الميتة. وكان يخور منتصراً عندما صعد بها. وأخذها فى فكَّيه وسبح بكل سرعته إلى مغارته فى بطن الجرف.

حيوان البحر وملكة السماء

جوانيتا كاسن

كانت الدلافين(*) متكاسلة فى بحر الصيف على عمق قامة بالقرب من صخور بارا، مكتفية بالتراخى، وكان هناك صغيران قد انضماً إلى القطيع منذ فترة قصيرة، عندما صعدت الأم الرمادية الضخمة إلى عالم الهواء واستراحت بهدوء بالقرب من السطح الفاتح اللون. وكان أحد الصغيرين ذو الجسم الصغير اللامع قد وُلد فى

(*) خنزير البحر porpoise : نوع من الحيتان يعيش فى مياه المحيطات له خطم حاد وزعنفة ظهرية مثلثة الشكل. أو أىّ من الحيتان الشبيهة بهذا الحوت مثل الدلفين. (المترجم).

عالم الأضواء المتغيرة والماء الوديع، يطوقه مهد من الماء والأعشاب، وكان وحيداً مع البحر منذ لحظة ميلاده. وبجانب أمه الرمادية الذكية استطاع بارا الصغير أن يعرف طرق الماء، واللمعان الخاطف والغريب للعالم العلوى، عالم حرارة الشمس المفاجئة نهاراً والعيون المتألقة ليلاً. وعرف الأعماق المظلمة للبحر، وانتعاش المتعة المفاجئ الضخم عندما يقفز فى رغوة فضية فى عالم الرياح، وجسمه منحنٍ مثل قوس قزح. وعرف كيف يُخرج سمك موسى الأبله من الرمال الضحلة، وكيف يطارد السمكة ناعمة الفم ليحصل عليها من طين الميناء، وكيف يقفز بسرعة فى أثر حشود سمك الرنكة... نهم للدم الأحمر البارد.

وقريباً سوف يكون عليه أن يترك جانب أمه ويتجول مع القطيع، مصقولاً ومستديراً بعين مبتهجة.

كان قائدُهم أران المسن رمادى الرأس الذكى، جاد الملامح، على جسمه نُدَب من آثار جراح العديد من المعارك، الحريص على قطيعه السعيد.

لكن مع مرور السنين أصبح نموه أبطأ، وانتشر اللون الرمادى على جسمه، ووجد أنه لن يستطيع بعد ذلك أن يكون أبًا لقطيعه، واصطفت الذكور البالغة الشابة بصرامة على جانبيه. وفى يوم ما تحداه فوكا، الأقوى بينهم، واحتل مكانه، وضل أران عن القطيع، متخذًا طريقه ببطء منفرداً عبر البحار ليموت. وانطلق ابنه بارا قريبًا من القائد الجديد، منتظراً وقته الملائم. وبالدوران فى مسارب البحر كان القطيع يثب بمرح إلى ما وراء أراضى ويلز الداخلة فى البحر، ليدور حول جزر الغرب. وعلى مسارهم الذى بدأ من بيشوب لايت سبحت الدلافين بالقرب من الجزر الصغيرة الخارجية، لتفاجئ جريبوس. عجل البحر الرمادى، على عرشه الصخرى. ضرب

جريبوس بزعانفه بشكل متكرر غاضبًا ونبح محذرًا زوجاته، اللائى جررن أقدامهن وصعدن الحواف الناتئة إلى صغارهن، وهن يتدحرجن وينفخن مهددات فى عجلة من أمرهن ليهربن من الماء ومن مجموعة الدلافين المهاجمة للطرائد. وبدورانه فى اتجاه الغرب، كان القطيع على بعد بضعة أميال من وولف عندما تنبَّه بارا إلى ما يثير قلقًا بالغًا، مذاق ما، رائحة شىء ما قاسٍ وخطير فى المياه خلفه. توقف طنين الماء، وكان هناك شىء ما يهيج مثل الرعد من الأعماق، شىء قطع البحار مثل سكين، وظهر أسود اللون بسرعة فى هدير الماء.

وأحدث خوف بارا اضطرابًا فى البحر من حوله، وغطس الكثير من أفراد القطيع فجأة معه، بعيدًا عن فوكا، وهربوا إلى أسفل فى الظلمة. وجعل الخوف الدلافين ترتجف مثل الطيور. ولم تكن مع القطيع الرئيسى عندما اصطدم بهم بعنف أوركا القاتل الأسود.

تباعدوا تحت تأثير الصدمة، وتحرك أوركا بينهم بفظاظة مفاجئة مثل كلب صيد أسود هائل الحجم، بعينه الصغيرة الجنونية ذات اللهفة المخادعة، بهمجية عالم الوحوش وعالم الأسماك تحت الماء، همجية الحوت القاتل. وقطّع ومزّق حتى صار يسبح فى ماء أحمر. وفوكا الذى تلقى عضة فى العمود الفقرى، غاص فى الأعماق فاقد الحس والفقاعات تخرج منه، وكان يعوى وهو يغرق ببطء فى دمه. وعندما اجتمعت الدلافين معًا من جديد كانت قد أصبحت قطيعًا صغيرًا يُرْثَى له تحرك بإنهاك حتى شانيل العليا، البعض بجروح كبيرة كما لو أنه قُطّع بمجارف حفر، والبعض بلحم معلّق ممزّق، وأنثى مسنّة وقد انفصلت عنها زعانفها. وتقدم بارا على رأسهم وصار زعيمًا لهم، أبًا للقطيع الصغير، راعيًا لهم فى طريقهم الأليم، مهتمًا بالصغار والإناث، شرسًا فى مواجهة الذكور البالغة المغرورة، حاكمًا حكيمًا فى عالمه

المائى الصغير. وتابعوا سفن تلك الأيام الصغيرة جداً، والسفن متعددة الأشرعة، الطويلة، تلك السفن السريعة المبهجة، التى تسابق الشمس حول العالم. وفى عودة مقاتلى كيب هورن إلى موانئ وطنهم كانوا يملئون آب شانيل بالزَّبَد وهم يغنون مع كل عقدة، وبجانبهم كانت الدلافين، رحَّالة البحر، تتقلب.

وفى صباح بارد فى مارس، عندما هبت الريح شديدة من الغرب مع تساقط ثلج خفيف من سماء بلون أزرق باهت على ماء أزرق صارخ، اقتربت "ملكة السماء" من دخول قناة شانيل، وأزبدت القضبان المتحركة أسفلها وهى تجتاز ليزارد، وهى ترعد بأكبر عدد من الأشرعة. تلك السفينة المحبوبة أكثر من غيرها على خطها وفى جيلها، كانت بالغة الجمال حتى إن البحارة المسنِّين يحكون عنها فى سنواتهم اللاحقة بعيون المحبين الحالمة، وحيث حمل البعض عذاباً فى قلوبهم، وبكى البعض حرقة

بأرواح مضطربة، وقتل البعض سيدهم ونصف الطاقم قبل قتلهم أنفسهم، كانت ملكة السماء "كوين أوف هيفين" سفينة محبوبة وسفينة عظيمة.

فى ذلك اليوم المليء بالصيحات من شهر مارس سبح بارا وقطيعه بالقرب من السفينة صاعدين فى قناة شانيل، وذهب طاقمها إلى المقدمة لمراقبة الدلافين وهى تلعب. وبينما كان الطرف الأمامى من العارضة الممتدة بطول قعر السفينة يغطس ويصعد كان فى استطاعة بارا أن يترك السفينة تلمس ذيله للحظة قبل زيادة سرعته بسهولة. وغاص أسفلها ثم صعد فى اتجاه هبوب الريح، وهو يرى الخطوط النظيفة المحبوبة لهيكلها تتماوج فوقه، وكان الهيكل يقطع الماء الأخضر تاركًا خلفه دخان الصافرة الفضى مثل مُذنَّب.

وخلال سنوات كان بارا وقطيعه يستقبلون ملكة

السماء بترحاب وهى تدخل المياه الإنجليزية بعد رحلتها الطويلة قادمة من أطراف العالم، وكان البحَّارة يرون اقتراب الدلافين علامة على عودتهم إلى الوطن.

وكان يحدث أحيانًا أن تتوقف محمولة على الأمواج الساكنة المختلطة بالزيوت بعيدًا عن ستارت بوينت وتظل تتحرك دون قوة دافعة لمدة يوم، حتى تهب الريح من جديد فى المساء، فتبدأ فى الحركة مبتهجة، هامسة فوق الماء، معتمدة على الليل فى العودة السريعة الهادئة إلى الوطن، وتتحرك معها مجموعة الدلافين. وقد تأتى أحيانًا متألقة رافعة كل الأشرعة فى مهب ريح جنوبية غربية قوية، مندفعة بقوة تعبر "ليزارد" خلال وابل الماء الأبيض، وعارضة شراع ساريتها الأمامية تغنى أغنية غريبة عن آفاق التجول، وعن رحلتها حول "القرن"، وعن انتظارها الطويل لبلوغ اليابسة.

هذه السفينة كانت ملكة السماء: توحيد كامل بين حرفية الإنسان والريح والماء، لكن روحها، روح السفينة، تظل خاصة بها حتى النهاية.

وكان بارا قد نما ببطء بلونه الرمادى مع مرور السنوات، وفى يوم ما ترك المجموعة وذهب وحيداً فى طريقه الخاص. وكان متعبًا من جهود قيادة القطيع الضخم، ومن مداومته على الحذر والانتباه الشديد والتحدى القاسى للذكور الأكثر شبابًا.

ومع تقدمه فى العمر كانت السفن الشراعية قد أصبحت نادرة، وبدأت ماكينات الضخ والأصوات المرتفعة وسواد الدخان تؤذن بعصر مستقبلىٍّ، عصر صليل الحديد وماكينات دفع الماء العنيفة. وانطلقت السفن الحديدية الجديدة لا تعتمد على الرياح ولطخت البحار بالسناج وبالزيوت بكل الألوان، وكان بارا يفر

كلما وجد أيًا من هذه الأشياء.

وعندئذ كان يصاحب السفن الشراعية القليلة المتبقية بعض الوقت فقط، لكن أفراد طواقمها ظلوا ينظرون إليه كلما دخلوا إلى امتدادات الماء الظاهرة بين انحناءات "شانيل"، مغرمين بذلك "الدلفين العزيز" الذى يرحل وحيدًا.

كانت سرعته قد تباطأت ولم يكن يستطيع بعد ذلك المحافظة على الحركة السهلة بالاستعانة بالعارضة سريعة الحركة الممتدة على طول قعر السفينة. ويصبح خائر القوى بسبب الهواء المندفع. وذات يوم ترك البحر المحبوب ليستريح فى المرافئ الطينية. وواحدة وراء واحدة اختفت السفن الشراعية من البحر.

ومستلقيًا تحت أفرع أشجار البلوط المشبعة بالماء شبه المغمورة إلى منتصفها، ترقَّب بارا ظهور سمكة

تائهة أو سمكة سلمون مريضة، وكان يسرع بذلَّة إلى فريسة وسخة فى المياه السمراء فى الجداول الضحلة.

ودعكَ ظهره المحتاج إلى الحك على هياكل القوارب والمرساة، وهو يهرش متكاسلاً مثل خنزير مزرعة لتخليص جسمه من قمل الميناء.

وذات يوم تسلل حوت ذو أسنان ضخمة متقدم فى العمر ويائس يعانى من المرض. فى الميناء الصغير، وتقلَّب قانطًا بجانب رصيف الميناء مستسلمًا لموت بطىء بشع، بكل هذه الضخامة، وبكل فداحة الموت التى أفزعت الناس وهم يراقبون من جهة الرصيف مما ملأ قلوبهم بالشفقة تجاه هذا العملاق الذى يصرعه الموت.

وشعر بارا بحاجة ماسة إلى المغادرة المياه غير الصحية فى الميناء، حيث شعر بالروح تغادره، ورغب فى أن تكون نهايته فى المياه النقية، المياه النشيطة حقًا، عند

بداية موته. واستسلم للمد الراحل، وبعد أن انزلق عابراً آخر صخور الأرض، وصل إلى البحر مثل مسافر يقترب متلهفاً من موطنه.

وخلال ليلة من السحب المهرولة، ومع رذاذ الأمطار التى تحلق متساقطة فى الريح العاصفة، تهادى بارا بهدوء فى مسارب بحره المحبوب.

ثم جاء الغضب، مع شريط أزرق شاحب حيث يجب أن تكون الشمس، ودارت الريح إلى الجنوب الشرقى وهى تعوى مرتبكة. وطوال الصباح أشرقت الشمس وغزت الريح القمم وزمجرت مهاجمةً الأرض دون شفقة، وتحت سوط الريح ظهرت سحابات البخار على البحر. وعام بارا ببطء تحت العاصفة، لا يرتفع إلى سطح المياه المضطربة إلا ليطلق الهواء الرطب من منخريه. وأربكته الريح الصارخة والرشاش الطائر، ووجد صعوبة فى

التنفس عبر سوط الماء. وكانت السفن الأصغر قد سارعت باحثة عن الأمان، ومع وصول المساء كانت العاصفة فى قمتها.

كانت هناك سفينتان فقط يمكن رؤيتهما من محطة ليزارد، إحداهما زورق قَطْر يُستخدم فى المحيط، والآخر كل ما بقى من "ملكة السماء".

مثقلة بالهموم ومنجرفة خلف سجانها الصغير، مقيدة بسلسلة مثل كلب، كانت "ملكة السماء" تتخبط" فى رحلتها الأخيرة إلى نهاية الأشياء عديمة النفع فى ساحة تحطيم. وفاقدةً كبرياءها، تم سحبها وتغطيسها مدفوعة بقوة وبلا رغبة فى مواجهة الريح التى كانت تبجِّلها فى كل انتصاراتها السابقة.

وكان الزورق الصغير يجاهد ضد المد والجزر والريح، ينتفض بسبب الاندفاع المتزعزع لسجينه الضخم مثل

انتفاض أرنب أمام كلب صيد. وبالنسبة إلى المراقبين فى ليزارد أصبحت مهمة الزورق لا تُطاق، وخلال الراحة رأوه يخرج عن كل الاتجاهات ويتجه إلى البحر، إلى أمان المياه العميقة، تاركًا هيكل السفينة القديمة الضخم يتحرك إلى الشاطئ. وعندما كان بارا يجبر نفسه على التنفس بصعوبة فى الريح العاصفة، كانت "ملكة السماء" تجأر فى مواجهته، وكانت عيناه الهرمتان شديدتَى الضعف حتى إنهما لم تشاهدا أجزاءها العلوية الضخمة المُدمَّرة. ولم يرَ سوى خطوط الماء المحبوبة على هيكلها وهى تنجرف...

وفجأة وثب قلبه فى أشعة قوية من السعادة مثل نور الشمس، وأخذ مكانه المعتاد بجانبها وهى تجرى تجاه الأرض. ومنكبَّة للقتل مثل صقر طارت عند الصخور الغاضبة، وبالنسبة إلى المراقبين على الشاطئ بدا الأمر كما لو أنها صرخت بصوت مرعب، صرخة سفينة فقدت

روحها...

وفى هدوء الصباح وجدوها.

كان كل ما يمكن أن يطلق عليه سفينة قد تلاشى. لم يبقَ سوى كتلة ضخمة من الخشب المحطم مُلْقًى به على شاطئ الخليج الصغير، وخشب محطم يغتسل برقة فى المد المضجر.

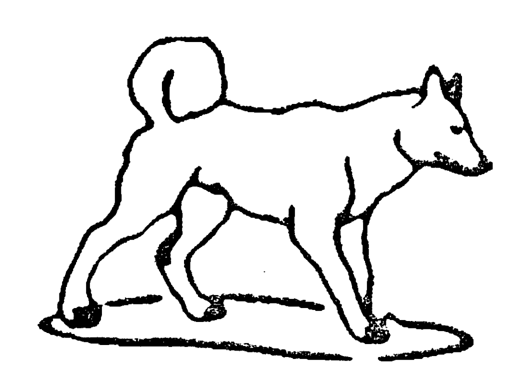
ووجدوا، مقذوفًا بها عاليًا على الشاطئ وراقدةً على التمثال الذهبى المحطم الذى كان فى مقدمة "ملكة السماء"، جثة دلفين مسنٍّ مبجَّل.

"انظروا إليه" هكذا قالوا "لا بد أنه تابع السفينة الهرمة إلى مأواها. انظروا كيف يبتسم، إنها ابتسامة بشرية تقريبًا". واصلوا الكلام. وعندما ابتعدوا على الشاطئ ظهرت الشمس صامدة من خلف السحب وهبط غراب ببطء إلى حافة الماء، ومختالاً على الرمال بدأ

يحملق وينخس بمنقاره وسط الحطام.

كلبة الهاسكى(*) الأخيرة

فارلى نوات



(*) الهاسكى husky : كلب من سلالة تُربى فى سيبيريا يُستخدم غالبًا فى جر المزلجة. (المترجم).

شيّد القوم الكوخ القبى(*) الصغير ورحلوا إلى الأراضى القفر. غادروا المكان وهم ينشدون مراثى عن الموت، وتركوا كل شىء خلفهم سوى الرجل الشيخ. وحتى أرنوك، الكلبة، أخذوها، لأن تلك كانت رغبة الرجل الشيخ، وكانت أرنوك أغلى هدية يمكن لرجل شيخ أن يقدمها لابنه وقومه.

وكان فصلاً قاسيًا، أسابيع الجوع الطويلة قبل الربيع، وفى مخيم القوم ارتفعت صيحات الأطفال الذين كانوا من الصغر بحيث لا يعرفون ضرورة مواجهة الجوع فى صمت. وحل الموت فى المخيم، لم يصب الرجال لكنه أصاب هؤلاء الذين كانوا تقريبًا ذوى قيمة

(*) الكوخ القبى igloo : كوخ يبنيه الإسكيمو من ألواح الثلج. (المترجم)

بالنسبة إلى استمرار الحياة البشرية. مات الكلاب، واحداً تلو الآخر، وكلما سكن أحدها حدث نفس الشيء لآمال الرجال حيث يتضاءل الأمل فى المستقبل. لأنه فى إقليم السهول الجرداء فى بارين لاندز تكون حياة الرجال والكلاب شيئًا واحداً لحاجة كل منهما إلى الآخر.

وحتى ذلك الحين رغم الأحوال القاسية، لم ينبس أحد بكلمة ضد حماقة تغذية جسم بشرى مسنٍّ لا فائدة منه. وكان ماكتوك، الابن، قد قسّم مئونته الضئيلة بالتساوى بين أبيه وطفله الجائع، الذى يحمل أيضًا الاسم الذى يربط الثلاثة معًا. لم ينبس أحد بكلمة، ولكن فى يوم مظلم فى بداية شهر مايو رفع الرجل الشيخ نفسه ببطء من رف النوم وحدق بعض الوقت إلى حفيده، ومن أعماق الحب العظيم والشجاعة الأعظم، نطق ماكتوك بهذه الكلمات:

"أحفظها فى قلبى" هذا ما قاله "أن الوعل ينتظرك فى ويسترن ليك. اذهب عندما يأتى الصباح، وأنا سوف أبقى. وسوف تأخذ أرنوك معك، حتى تتذكرنى فى الأعوام القادمة وتضع هدايا الأرواح على قبرى".

لم تكن هناك مناقشة. لأنه حتى الرجل الشيخ له حقوقه، وتلك كانت آخرها. وفى الصباح غادر القوم المكان، ووراء زلاجة ماكتوك الشاب كانت الكلبة أرنوك مشدودة بقوة متشنجة من قيودها وقد أدارت رأسها إلى الخلف فى اتجاه كوخ قبى أبيض، يرتفع دون ظل فى مواجهة الجليد اللانهائى.

كانت أرنوك قد وُلدت فى الربيع الماضى، فى الأزمنة القاحلة التى تهيمن على الأرض دائمًا قبل عودة الوعل. وكانت الجرو السابع من مجموعة الجراء التى وُلدت معًا، ولم يكن هناك طعام لها. ولولا أن الرجل شيخ قد أخذها

تحت مسئوليته لتغذيتها والعناية بها، لكانت قد ماتت قبل أن تبدأ حياتها. وحتى ذلك الحين كانت قد شاهدت الصيف يأتي وعرفت مسرات الأيام الطويلة التى قضتها تمرح فى صخب مع الكلاب الصغيرة الأخرى بجانب النهر الواسع حيث كان مخيم الصيف منصوباً. وعندما كانت تشعر بالتعب، كانت تذهب إلى الخيمة الجلدية وتندفع على ركبتَى الرجل الشيخ حتى يفتح عينيه الهرمتين ويبتسم لها.

وهكذا نَمَتْ خلال أشهر الصيف الطيبة، وكان الناس فى المخيم يحدقون إليها فى ما يقترب من الهيبة، حيث أصبحت من الجمال والحجم والقوة بما يتجاوز نفس الصفات لدى الكلاب الأخرى. وأعطاها ماكتوك الأكبر سنًا الاسم الذى تحمله: أرنوك (المرأة) لأنها كانت الزوجة والأم بالنسبة إليه فى الشتاء الأخير لسنوات حياته.

ولأنه لا يكون هناك موت عندما يكون هناك ميلاد، أصر ماكتوك الشيخ على تزويج كلبته فى آيام أبريل، عندما يكون القمر تاماً والذئاب البيضاء تعوى معبرة عن اهتياجها لارتجافات الأنوار الشمالية. وهكذا تم ترتيب الأمر لأن أرنوك تحمل فى داخلها وعد القوة الذى قد يكون قوة للجماعة فى السنوات المقبلة. وعندما شعر ماكتوك، الأكبر، بنبض حياة جديدة فى رحم "المرأة"، كان سعيداً.

وكان جوع الربيع قد بدأ سريعًا قبل تزويج أرنوك، وازدادت المجاعة مع مرور الأيام. ماتت الكلاب الأكبر سنًا أولاً، وبعدها عندما اقتربت نهاية المجاعة، فحتى الرفاق الذين كانوا جراء من نفس البطن التى حملت أرنوك كانوا يرقدون فى سكون على الجليد. لكن قوة أرنوك كانت شديدة، وعندما كان هناك بعض فضلات العظام والجلد التى يستغنى عنها الناس، فإنها تأخذها،

لأن فى رحمها تتهيأ آمال المستقبل.

كانت تلك هى الأحوال عندما غادرت الجماعة الكوخ القبى الوحيد، وساحبين الزلاجات بعضلاتهم العاجزة، توجهوا نحو الغرب.

يمكن للعلاقات التى تربط بين الرجل وكلبه أن تكون متعددة القوى، لكن العلاقة التى ربطت بين أرنوك وماكتوك الشيخ كانت أبعد من أن تحطمها القوة البشرية. ذهبت أرنوك مع القوم، لكنها كانت تقاوم ذلك بشراسة. وفى اليوم الثالث من الرحلة قضمت بأسنانها فى القيد الجلدى، وقبل الفجر كانت قد اختفت فى جرف الأرض الدوامية. وفى الصباح أمسك ماكتوك، الابن، القيد المتمزق فى يده، وكان وجهه مليئًا بمحنة تنذر بالشر. وفى النهاية عندما خاطب عائلته، وجه إليها هذه الكلمات:

"ما يجب أن يحدث لا يمكن بالتأكيد إنكاره. لقد ذهبت "المرأة" إلى أبى، وستكون معه عند وصول الموت (مشّاء الثلج). لكن روح أبى ستعرف حاجتنا، وربما يطلع النهار عندما سيعيد "المرأة" إلينا، لأنها إذا لم تأت، ستكون السنوات القادمة مظلمة".

أما عن أرنوك فقد وصلت إلى الكوخ القبى الصغير قبل انبلاج الفجر، وعندما فتح الرجل الشيخ عينيه ليرى ما إذا كان الموت قد أتى أخيراً، رأى بدلا منه الكلبة. وابتسم وأراح يده النحيلة على رأسها، ثم نام مرة أخرى.

تأخر الموت عن المجيء، لكنه أتى فى اليوم السابع، متخفياً، وعندما اجتاز المكان تحطم القيد. ومع ذلك لم يتحطم لأن أرنوك تباطأت مع ميتها ثلاثة أيام، عندئذ ربما كانت الريح هى التى همست بالأمر غير المنطوق: "اذهبى إلى القوم، اذهبى".

وعندما برزت من الكوخ وجدت عالمها وقد طُمس تحت عاصفة ثلجية شديدة. توقفت فى أشعة الشمس الشاحبة بعض الوقت، وكان كساؤها الذهبى يتوهج فى مواجهة الظلال الأرجوانية، ثم أدارت وجهها بطوقها العريض حول الرقبة وبالعينين الواسعتين الكهرمانيتين تجاه الغرب، حيث يقع مسارها على هذا الطريق. وفى روحها كانت أصوات أجيال لم تولد بعدُ تردد صوت الريح، ولكن بإلحاح أكبر: "اذهبى إلى خيام الرجال" هكذا قالت لها الأصوات "اذهبى".

ولم تتوقف حتى عندما اجتاح الليل السهول المكشوفة بالظلمة. وفى منتصف الليل وصلت إلى المكان الذى كانت قد انتزعت حريتها فيه من زلاجة ماكتوك. وكانت تعرف أنه هو المكان بحاسة داخلية فقط، حيث كان الثلج قد مسح كل العلامات وجرف كل الآثار. ودارت حول أكوام الثلج القاسية، وهى تئن فى يأس، لأن الشكوك

المرعبة كانت قد بدأت تسيطر عليها. وتسلقت قمة صخرية عالية وضيقة لتختبر هواء الليل باحثة عن علامة ما بأن الرجال فى مكان قريب. ووصلت إليها الروائح: الرائحة اللاذعة لثعلب القطب الشمالى الذى فر فى الخفاء عند اقترابها. لكن لم تكن هناك رائحة رجال.

ارتفع أنينها متصاعداً، التماس برئ فى الليل، لم يتلقَّ إجابة سوى العويل المتزايد للريح. وبعد مضى بعض الوقت، منهكةً بخدر أثقل جُوعَها ووحدتها، تكورت فى مأوى فى جرف وسلمت نفسها للأحلام.

وهكذا نامت الكلبة فى قلب البرِّيَّة التى لا يُسبر غورها. لكنها وقد غفت فى غير اطمئنان كان هناك تغير عميق يأخذ مجراه فى المواضع الخفية من جسمها. كانت هناك سيمياء غريبة تعمل. كانت ساكنة وأنفها ممتد على مخالبها العريضة لقائمتيها الأماميتين وعضلاتها تتشنج باندفاعات غريبة الأطوار. وتدفق اللعاب إلى فمها، وفيه

كان طعم الدم. وفى عين بصيرتها كانت تمد خطواتها لتتسق مع خطوات الوعل السريع، وأسنانها تلتحم باللحم الحى، وتعرفت على الهياج الوحشى للارتعاشة الأخيرة لدى الفريسة وهى تموت.

ومن مكان ما خارج الزمان، كانت الغرائز الأبدية الموجودة فى كل الخلايا الحية قد تجددت بحيث لا يمكن للكلبة، والحياة الجديدة داخلها، أن تموت. وعندما رفعت أرنوك رأسها أمام ضوء الفجر، كان كل شىء قد تم، واكتمل التغيّر.

كان الفجر صحواً، واستكشفت أرنوك الريح، بعد أن أصبحت قدراتها على التمييز الحسى بالغة الحدة نتيجة كيمياء التغير. وعندما تعرفت على الرائحة الدافئة للحم الحى، نهضت للعثور عليه.

وعلى مسافة ليست بالبعيدة، كانت بومة الثلوج،

بيضاء هامدة بلا ظل فيما قبل الفجر، قد طارت مبكرة بسرعة عبر الوديان وعيناها تحدقان بشدة. وكانت قد رأت أرنبًا بريًا وانقضت عليه بسرعة حتى إن الحيوان لم يشعر بشيء حتى قبضت البراثن، التي يصل طول كل منها إلى بوصة، على حياته وخطفتها منه. كانت فريسة جيدة، وشعرت البومة بالبهجة وهي تجثم على الجثة. وكان الطائر الضخم يقدر مدى جوعه، وبينما كان جاثمًا وهو راضٍ، منحنيًا فوق الأرنب، لم يَرَ انسياب الحركة في جرف قريب.

كانت أرنوك ابن عرس(*) وهو يحبو بسرعة ليمسك بفأر، وثعبانًا يزحف منقضًا على عصفور الدوري الصغير. تلك مهارات لم تعرفها من قبل، مهارات أتت إليها بكاملها من حيوانات غير كاملة منسية فُقدت في

(*) ابن عرس weasel: حيوان ثدييٌّ لاحم من فصيلة السموريات ذو جسم طويل ونحيل وذيل طويل وأرجل طويلة وفراء بني يتحول في العديد من الأنواع إلى الأبيض شتاء. (المترجم).

حقب أكثر غموضًا، ولقد اكتسبت تلك المهارات الآن.
سحبت بطنها على الثلوج الصلبة وسارت ببطء إلى الأمام. وعندما صارت على بعد نحو عشرة أقدام، رفعت البومة رأسها، وبشدة خالية من أى تعبير حدقت العينان الصفراوان إلى الطائر فى وجه أرنوك. كانت أرنوك فى هدوء الموت، ومع ذلك اهتزت كل عضلة فى قبضة انفعال لم تعرفه قط من قبل. وعندما استدارت البومة إلى فريستها، وثبت أرنوك. رأت البومة بداية الوثبة فقذفت بنفسها إلى الخلف منطلقة فى بيئتها بدفعة سهلة من جناحين قويّين. لكن هذين الجناحين كانا بطيئين إلى حد ما واخترقت الاندفاعة العنيفة للكلبة، التى وثبت ستة أقدام فى الهواء، اللحم تحت الريش. كانت معركة قصيرة. وأسالت براثن الطائر الدم ثلاث مرات ثم تصلبت وتراخت ميتة.

بعد ذلك نامت أرنوك بينما كان الهواء يعصف بالريش

الأبيض إلى منطقة بعيدة معتمة، وكانت أكوام الفراء الأبيض تتحرك مثل الكائنات الحية المراوغة فى قبضة الريح. وعندما سارت من جديد كانت معاناتها من الجوع قد انتهت، وكانت القوة الوحشية لغرائزها الجديدة قد ضعفت للحظة. ومرة أخرى كانت دابة الإنسان وكانت تائهة.

وسارت، ودون أن تلقى نظرة على الثلج الأحمر بجانبها. انطلقت من جديد إلى الغرب، بلا وعى، ومع ذلك كانت منقادة تماماً.

وكان الناس الذين بحثت عنهم رُحَّلاً على سطح أرض منبسطة بالغة الاتساع حتى إنها تبدو بلا حدود. ولم تكن الكلبة تستطيع أن تدرك رجحان عدم العثور عليهم، لكن فى ذاكرتها كانت صورة المخيم الصيفى بجانب النهر الواسع حيث قضت زمن شبابها، وبمثابرة لا

تخطىَ الهدف تابعت مسارها إلى ذلك المكان بالغ البعد.

ومرت الأيام، وبعد كل يوم كانت الشمس تصعد قليلاً في السماء. وكانت المسافة تطول تحت أقدام الكلبة حتى أحدث انفجار الربيع اضطرابًا فى العالم. أصبحت الثلوج ناعمة، وأصدرت أنهار البارينس، وقد تحررت من أغلالها، أصواتًا كالرعد غاضبة عبر السهول. وفى السماء البيضاء المتألقة، كانت تحليقات الغربان السوداء تتأرجح مثل دوامات أوراق نباتات محترقة، وعلى البحيرات المفتوحة أوز اختلط بأسراب النورس الصاخب.

كانت يقظة الحياة فى عمق الطحالب حيث حفرت قوارض اللاموس(*) سراديبها، وكانت على القمم الصخرية الطويلة الضيقة حيث اختالت ذكور دجاج

(*) اللاموس lemming: نوع قوارض قصير الذيل يوجد فى المناطق الشمالية. (المترجم).

الشمال(*) أمام إناثها. كانت اليقظة فى كل الكائنات الحية وفى كل الأماكن، وكانت فى رحم الكلبة أرنوك. كانت رحلتها طويلة وكانت مخالبها العريضة مغطاة بالدم الجاف من مائة جرح صخرى. وكان فرائها الرائع قد أصبح خشنًا متسخًا، لا بريق له تحت شمس الربيع. ورغم ذلك استعانت بقوى مجهولة وبإرادتها الخاصة التى لا تُقهر، وتقدمت إلى الأمام فى السهول الغربية.

وهزيلةً وملتهبَة العينين ومنهَكَةً، وضعت نهاية لرحلة بحثها ذات يوم فى بداية يونيو. وبعد أن صعدت قمة عالية طويلة رأت أمامها ضوءًا متألقًا على ماء هادر، وتعرفت على النهر. لقد عادت إلى وطنها.

وكانت تئن من البهجة، وهى تجرى بتهور هابطة

(*) دجاج الشمال ptarmigan: طائر من نصف الكرة الشمالى من رتبة الدجاج، ذو ريش بنى أو رمادى فى الصيف وأبيض فى الشتاء. (المترجم).

المنحدر، لأن جسمها قد قلت براعته فى تلك الأيام الأخيرة. وفوراً أصبحت بين حلقات من الصخور الضخمة المستديرة المواجهة للريح، حيث، فى الصيف الذى مضى، كانت خيام البشر منصوبة.

لقد اختفت الخيام! لم يكن هناك بشر حى للترحيب بعودة الضائع. فقط فى القمم العالية القريبة كان ركام الصخور الساكنة التى يسميها الإنويت "إنوكوك"، أى الرجل الصخرى، هناك لتشهد قدوم أرنوك. ذلك الركام وأكوام العظام المحجوبة تحت ركام الأحجار كعلامات على القبور بالقرب من النهر، قبور قديمة لأناس منسيِّين. أدركت أرنوك أن المكان كان خالياً من البشر الأحياء، ومع ذلك ظلت بعض الوقت ترفض تصديق هذا الأمر.

بطريقة يُرْثَى لها جَرَتْ مبتعدة عن حلقة الخيام القديمة إلى مخابئ اللحوم القديمة وهى تشم كلاً منها بأمل يائس، ولم تعثر على شىء يثلج قلبها، وعندما أصبح لا

مفر من إدراك الأمر، لفّت الكلبة نفسها فى تجويف بجانب المكان حيث كان ماكتوك الشيخ قد حملها ذات مرة على ركبتيه، وسلمت نفسها لتعبها الشديد ومرارة خيبة أملها.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن المخيم خاليًا تمامًا إلى تلك الدرجة التى يبدو عليها. وعندما كانت أرنوك تقوم ببحثها المخفق كانت مشغولة البال جدًا حتى إنها لم تدرك أن هناك من يراقبها. ولو حدقت إلى ضفة النهر لكانت قد رأت قوامًا رشيقًا تابع كل حركاتها بعينين تحملان داخلهما جوعًا لم تلده بطن. كانت سترى وتتعرف على ذئب، ولكان الشعر على عنقها وظهرها قد انتصب وانكشفت أسنانها. ولأن الكلاب التى استأنسها البشر والكلاب البرية قد انعزل بعضها عن بعض، توجد بينها الكراهية القديمة بين إخوان أنكروا نسبهم المشترك.

كان ذلك الذئب يافعًا، وُلد فى الفصل السابق، وبقى مع عائلته، حتى ألحَّت عليه الرغبة فى الترحال، فى بداية ربيع ذلك العام، فهجر منطقة أسلافه. وقابلته مخاطرات كثيرة، وكان أغلبها قاسيًا، حيث تعلم، بعد أن كلفه ذلك تمزقًا فى أجنابه ونزيفًا فى كتفيه، أن كل عائلة ذئاب تحرس أرضها الخاصة بحرص وحشى وأنه ليس هناك مكان للغرباء. وتمت مواجهة عروضه بالصداقة بأسنان مكشوفة فى أراضى ثلاث عشائر ذئاب، على الأقل، قبل ذلك، ووصل إلى النهر ووجد مكانًا خاليًا من الذئاب.

كان مكانًا جيداً. وفى المناطق غير البعيدة مخيم الأنويت الخالى، كان النهر يحتدم غاضبًا على امتداد ضحل من الصخور الضخمة المستديرة ليفقد قواه عند مدخل بحيرة شاسعة، وفى المكان الضحل كانت غزلان الرَّنَّة قد صنعت مخاضة خلال هجراتها فى الربيع ومنتصف الصيف. وكانت تعبر النهر فى ذلك المكان

بآلاف لا تحصى، ولم تكن جميعها تنجو من غضب النهر. وهجعت الأجساد الغارقة للوعول الميتة بين الصخور فى فوهة النهر، وهكذا كان هناك غذاء وافر لمجموعة ضخمة من الثعالب، والغربان السود، والنورس الأبيض فى منطقة القطب الشمالى. لكن ذئاب الإقليم لم تأتِ إلى المكان، لأنه يخص البشر، وما يستولى عليه البشر يُحرَّم على الكلاب البرية الضخمة.

ولعدم معرفته بذلك الحظر اتخذ ذكر الذئب اليافع، المنبوذ، مأوى له بجانب النهر. وهناك كان يعالج وحدته. وربما حتى بما يتجاوز صفات الكلاب، تعتبر الذئاب حيوانات اجتماعية، فالصحبة فى الصيد وفى المباريات التى يلعبونها بعد الصيد تُعتبر أمرًا حيويًا لبهجة الحيوانات البيضاء الضخمة. ويُعتبر عزلهم عن نوعهم تعذيبًا لهم، ويمكن أن تعرضهم الوحدة لحزن مرير.

وكانت هذه هى حالة الذئب الشاب، وعندما رأى وشم الكلبة، أرنوك، امتلأ بانفعالات متناقضة. لم يكن قد رأى كلبًا من قبل، ومع ذلك شعر بأن الحيوان ذا الفراء الذهبى أسفله ليس من سلالته تمامًا. وكانت الرائحة قوية، وعلى الرغم من ذلك كانت مألوفة. كان الشكل واللون غريبَيْن، ومع ذلك أيقظا داخله حميمية الذِّكْرى والشهوة.

كان قد تم زجره مرات كثيرة من قبل لذلك كان حذرًا تلك المرة، وعندما استيقظت أرنوك من نوم إنهاكها، لم ترَ الغريب فى البداية، لكن منخاريها أنبآها فورًا بقرب لحم محبوب. كان جوعها قاسيًا وطاغيًا. وبلا تروٍّ وثبت على أقدامها وألقت بنفسها على فخذ ممزق لغزال رَنَّة جرفته المياه على بعد ياردات منها. وبمجرد أن أشبعت للمرة الأولى جوعها اليائس لمحت وواجهت التحديق الساكن للذئب الشاب.

كان الذئب قابعًا بلا حركة على بعد نحو مائة قدم من الكلبة، ولم يكد يحرك أذنًا حتى انتصب شعر أرنوك وتجسد التهديد بشدة من حنجرتها. ظل قابعًا، ومع ذلك كان مشدوداً للانطلاق بعيداً، وبعد وقت طويل، خفضت أرنوك رأسها من جديد على اللحم، مقتنعة بأن الذئب لا يمثل خطراً عليها. كانت تلك حالة أول مقابلة لهما. وهذا ما نتج عنها.

وبسخرية ذلك المخيم الثانى المهجور أمامها كفت أرنوك عن البحث عن الناس. لم تعد تستطيع مقاومة الطلبات الملحة لجسدها الثقيل، ولم يكن هناك المزيد من الوقت للبحث. وعندئذ مرة أخرى، فى وقت يأسها، سيطرت عليها القوة الخفية داخلها. وقبل انتهاء ذلك اليوم، تغير مزاجها بشكل سحرى من الاكتئاب العميق إلى تأهب عملى.

ومتجاهلة الذئب، الذى ظل بعيداً عنها، دارت أرنوك

على الأرض المألوفة. وفحصت بحذر جثث خمسة غزلان غريقة، ومن كل ذلك طاردت طيور النورس الصائحة، حيث أصبح هذا اللحم من حقها بحق قوتها الأشد. ثم بعد أن شبعت من مئونة الطعام الوافر، تركت أرنوك النهر وهرولت داخل الإقليم حيث كانت طبقة صخرية ناتئة من سطح الأرض قد فتحت جانبيها لتصنع مغارة غير عميقة.

هنا، عندما كانت جرواً، لعبت أرنوك مع كلاب المخيم الأخرى. والآن، وقد صارت أنثى بالغة، فحصت المغارة لهدف أكثر جدية. كان المكان جافًا ومحميًا من الريح. وكان هناك شيء واحد غير مقبول، وهو الرائحة. إنها رائحة كريهة قوية تجتاح الشق الصخرى، مما دفع أرنوك إلى سحب شفتيها فى نفور لأنه لم يكن هناك حيوان فى سهول القطب الشمالى لديه أى حب لحيوان الشَّره(*) القبيح الفتاك. ومن الواضح أن حيوان الشره

قد استخدم المغارة خلال أشهر الشتاء.

وآنف أرنوك أنبأها بأن الشره غادر المكان منذ عدة أسابيع، وكان هناك احتمال ضعيف فى أنه قد يعود قبل أن ترغمه رياح الشتاء على البحث عن مأوى. وخدشت أرنوك الأرض والرمل على الأرضية القذرة، ثم واصلت سحب طحالب إلى أعمق فجوة. وهناك أخيراً أخفت نفسها واستسلمت لقدرها.

وُلدت جراء أرنوك فى اليوم الثالث لها فى المغارة، فى الصباح عندما كانت صيحات الإوز الأبيض مرتفعة فى نسيم الربيع. جاء موعد الولادة ولم تكن الكائنات المتلوية الخمسة الباحثة عن الدفء بجانب فراء الكلبة وحدها فى أول أيام حياتها. ففى القمم الرملية العالية خلف النهر

(*) الشَّره wolverine: حيوان ثدييٌّ لاحم منفرد مقيم فى الجحور من المناطق الغابيَّة شمالى أمريكا، ذو علاقة بابن عرس وله جسم ممتلئ وأرجل قصيرة وفرو غامق وذيل كثيف. (المترجم).

كانت أنثى سنجاب أرض ترضع قطع اللحم الصغيرة العارية التى كانت ولدانها، وفى جحر فى قمة عالية على بعد ميل كان ثعلب قطبى شمالى يدفع وجهه المتأهب فوق الأرض بينما كانت أصوات النحيب الخافتة للجراء التى ترعاها زوجته تنبهه مقدمًا إلى المهامٍّ المطلوبة منه. وتحركت كل الكائنات الحية فى الأرض بالقرب من النهر حسب إيقاع متطلبات حياة المواليد الجدد أو من هم على وشك الميلاد. تحركت كل الكائنات بهذا الإيقاع عدا الذئب المنبوذ.

وخلال الأيام الثلاثة التى ظلت خلالها أرنوك مختفية، عانى الذئب الشاب من عذاب لم يتركه هانئًا. قلقًا، تواقًا إلى أشياء لم يعرفها من قبل، تردد كثيرًا على مكان قريب من المغارة. لم يجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك، وكل يوم كان يسحب قطعة من لحم غزال إلى موقع يبتعد بضع ياردات من فتحة المغارة ثم ينسحب بعيدًا ينتظر،

بصبر مثير للشفقة، قبول هديته.

وفى اليوم الثالث، عندما كان قابعًا بالقرب من المغارة، يصطك فى مواجهة الذباب الذى يتعلق برأسه، التقطت أذناه شديدتا الحساسية الارتعاشات الأكثر خفوتًا لصوت جديد. وقف على قدميه فوراً، الرأس ممتد وجسمه يرتعد منتبهًا. وجاء الصوت من جديد، شديد الخفوت حتى إنه يمكن الشعور به أكثر من سماعه. نحيب بالغ الضآلة يناديه عبر العصور وعبر الحواجز. وعند هذه اللحظة انتهى قلقه. هز نفسه بشدة، وألقى نظرة واحدة سريعة خصوصية على فوهة المغارة، وهرول مبتعداً عبر السهل. والوحيد المنبوذ لم يعُدْ موجوداً، ولكن ذكر يبدأ الصيد المسائى لتغذية أنثاه وجرائه. وهكذا ببساطة وبعيداً عن حاجته العميقة، ملأ الذئب الشاب الفراغ الذى أحاط به خلال أسابيع العذاب الربيعية.

لم تقبل أرنوك بسهولةٍ الذئب فى الدور الذى اختار أن يقوم به. ولعدة أيام صدَّته بأسنان مكشوفة، رغم أكلها عطايا الطعام التى تركها عند فوهة المغارة. وقبل انتهاء أسبوع أصبحت تتوقع اللحم الطازج: سناجب الأرض الطرية، وأرانب القطب الشمالى البرية، والدجاج الشمالى البدين. ومن ثم لم يكن ذلك فى الواقع سوى خطوة مهمة للقبول الكامل للذئب.

وأقرت أرنوك الاتفاقية معه فى الأسبوع الثانى من ولادة الجراء. وعندما خرجت إلى فتحة الجحر ذات صباح وجدت جثة أرنب برى حديث الصيد موضوعة جاهزة لتأخذها، وعلى بعد بضعة أقدام فقط، كانت هيئة الذئب اليافع واضحة.

ورحلة الصيد تلك الليلة كانت طويلة وشاقة وقد غطى الذئب أغلب المنطقة التى تمتد نحو مائة ميل مربع، التى

كان يراقبها من أجل عائلته المختارة، ورغم الإرهاق الشديد من عناء البحث، لم يزعج نفسه بأن يأوى إلى مكمنه المتواضع المعتاد على مسافة من الجحر.

وحدقت أرنوك وقتًا طويلاً تجاه الحيوان النائم، ثم بحركة مَنْ تَوَعَّدَ عدوًا، تحركت نحو الذئب. لكن لم يكن هناك تدبير حقيقى لفعلها. وعندما وصلت إلى جوار الذئب جعلت ذيلها الكثيف يتخلل خصلة شعره الخشنة وباعدت بين شفتيها كما لو كانت تضحك.

استيقظ الذئب ورفع رأسه ورآها تقف أعلاه، وعرف أن ذلك كان نهاية وحدته. وتوهج نور الصباح على قمة الجحر عندما كان الحيوانان الضخمان يقفان جنبًا إلى جنب، يحدقان بعيدًا إلى السهول وهى تستيقظ.

وفى الأيام التالية كانت الحياة طيبة على ضفتى النهر. بالنسبة إلى أرنوك لم تكن هناك تخوفات ولا مكان

خالٍ فى قلبها. وبالنسبة إلى الذئب كان يقبع فى الشمس تغمره الكبرياء خارج الجحر بينما الجراء تتصارع مع فرائه وتلوك أقدامه الصامدة.

وهكذا مر الوقت حتى أصبحت الجراء فى أسبوعها السابع. وحل منتصف الصيف على البارينس وكانت قطعان الأيائل تنساق مرة أخرى نحو الجنوب فى هجرة يوليو التى تسبق رحلة الخريف الأخيرة المجهدة إلى المنطقة الجبلية التى لا تتوافر فيما بعدها الأشجار. ومرة أخرى كان موقع العبور محتشداً بغزال الرنة، وكانت الغزلان الصغيرة تزعق بجانب أمهاتها المرهَقة، بينما الذكور المسنَّة، وقد ارتفعت قرونها المغطاة عالية، تتحرك متباعدة فى المقدمة.

فى ذلك الوقت ذات مساء توفرت لدى أرنوك الرغبة فى مطاردات الصيد الطويلة، وبطرق سرية لا يعرف

عنها الناس شيئًا، جعلت رغبتها واضحة بالنسبة إلى الذئب. وعندما حل غسق آخر الصيف، انطلقت أرنوك وحيدة فى ظلمة السهول، وهى مطمئنة بمعرفتها أن الذئب سيبقى لحراسة الجراء حتى عودتها، حتى لو امتد غيابها عامًا.

لم تخطط للغياب طويلاً، فقط بضع ساعات على الأكثر، لكنها وصلت بالقرب من أطراف الإقليم إلى مجموعة من شباب ذكور الأيل. كانت حيوانات رائعة، وبدينة، وكانت فى مثل هذا الوقت من العام شرهة للماء بدرجة غريبة. وضجرةً من اللحم الذى يفتقر تمامًا إلى الدهون، تعرضت أرنوك لجَيَشان شهية مفاجئ، ودارت حول القطيع المرتاح، وهى ممتلئة بجوع متقد.

وخانها تغير فى نسيم متقلب، وهبت الأيائل المحدقة على أقدامها وفرَّت. كانت أرنوك جائعة وكانت الليلة ليلة

صيد. وواصلت المطاردة الطويلة.

وهكذا ساق الزمن الظلمة المقتضبة من الأرض، وعندما انطلقت رياح الفجر المبكرة الشديدة فى الشمال أنهض الذئب نفسه من نوبة حراسته أمام فوهة المغارة. وجعله شعور بالغموض المنذر بشرٍ ينعطف إلى الجحر ويدفع رأسه وكتفيه فى المدخل. كل شىء كان على ما يرام، وكانت الجراء تتدحرج معا على كرة مُحْكَمة، تهز أرجلها القصيرة وهى نائمة. ومع ذلك استمر الشعور بالقلق فى ذهن الذئب، واستدار متوجهًا إلى النهر، حيث كان الضوء الغامق يُنتزع من منخفضات ومرتفعات القمم البعيدة.

ربما كان منزعجًا من الغياب الطويل للكلبة، وربما حذرته المشاعر التى تظل مجهولة بالنسبة إلينا. وازداد قلقه، وفى النهاية هرول بعيداً عن الجحر، وهو يشم فى

البرد أثر أرنوك، آملاً أن يرى هيئتها الذهبية وهى قادمة من داخل الإقليم.

ولم يكن قد قطع أكثر من نصف ميل عندما تجسد الإحساس الغامض بوجود شر ما فى شكل واقعى. حملت دوامة هوائية متنقلة النسيم الشمالى إلى منخاريه وأدرك فوراً سبب الانزعاج الذى أصابه عند استيقاظه. وعاد فى اتجاه المغارة بسرعة مفاجئة.

وعندما ارتقى المنحدر بجانب الجحر، التقط منخاراه نتانة حيوان الشره كأنها هواء مستنقعات متعفن، وتحول الذئب الشاب فى لحظة إلى كائن وحشى، مهتاج بأشد قوى الطبيعة غضبًا. وصل إلى أسفل المنحدر فى عدد قليل من القفزات الواسعة، وأذناه منبسطتان على جمجمته وحنجرته الضخمة تصدر أصواتًا عالية وعميقة تعبيراً عن حقد مشوش.

ومنذ عدة ساعات سابقة كان حيوان الشره قد اكتشف رائحة الجراء الصغيرة فى عرينه الشتوى القديم. ولم تكن لديه أية نية فى العودة إلى الجحر الشتوى المتعفن وهو يشق طريقه ببطء عكس تيار النهر، لكن رائحة الجراء اجتذبته. ربما كان يستطيع تجاهل حتى هذا الإغراء، فرغم عدم خوفه من أى كائن حى فإنه لم تكن لديه رغبة خاصة لمقابلة ذئبة هائجة تدافع عن صغيرها. لكن تلك الليلة كانت عقيمة بالنسبة إليه، وكانت تجاويف معدته تدمدم من الجوع، ولذلك، عاد، فى ضوء الفجر الغامق، من النهر، ودار بحذر نحو مهب الريح حتى عثر على صخرة ممتدة تتيح إخفاءه، ومن خلفها يمكنه ملاحظة الجحر. وانتظر فى ذلك المكان بصبر هائل حتى رأى الذئب الشاب يهرول خارجًا من فوهة الجحر نحو السهول داخل الإقليم.

ومع استمراره فى الحذر، ترك الشره مخبأه وتوجه

إلى الجحر، وكان يتوقف فترات طويلة ليطمئن نفسه بأن الجراء بلا دفاعات بالفعل. وكان جسمه القصير البدين الثقيل يحتضن الأرض الخشنة كلما أصبح أكثر قربًا، وعندئذ وهو ممتلئٌ ثقةً فى النجاح، يمكنه بسرعة أن يستمتع بمتعة القنص ومتعة الدفء المالح للدم.

كان هناك ما يكفى من الدم لكى يستمتع به ذلك الفجر. لكنه لم يكن دم جراء أرنوك.

كان الهجوم المفاجئ الوحشى للذئب الشاب سريعًا حتى إن الشره لم يكن لديه من الوقت الكافى سوى ما يتيح له أن يقاتل بعنف لاحتواء شدة الهجمة على جانبه. وكان ذلك كافيًا لإنقاذه، لأن أسنان الذئب البيضاء نفذت عميقة فى الجلد المرن، لكنها فشلت فى الإمساك المطلوب بالعنق، وبدلاً من ذلك التحمت بالأوتار العضلية لكتف القاتل. وبالنسبة إلى أى حيوان آخر قد يكون إمساكه

بهذه الطريقة جيداً، ويقود إلى النصر، ولكن مع الشره لم يكن جيداً بما يكفى. لم يكن الشره يعرف لا الخوف ولا الألم، ولدى جسمه القصير البدين من القوة ما يعادل ثلاثة أضعاف قوة أى حيوان فى حجمه. وبانتمائه إلى ابن عرس من ناحية السلالة، وبكل الضراوة المجنونة لابن عرس، كان للشره جسد دب، وتصل حيويته إلى حد المحافظة على حياته حتى لو تمزق جسده بالفعل إلى أجزاء.

تلك كانت حالة الحيوان المتمرس عند مدخل المغارة. لم يشعر بجرحه، وبدلاً من ذلك كان متأججاً بغضب جنونى. واندفع بما لديه من خمسين باونداً(*) من العظام والغضاريف فى هجمة مضادة وحشية.

لو كان الذئب أكبر سناً وأكثر خبرة، لكان قد تفادى

(*) باوند pound : وحدة وزن تساوى ٤٥٣ , ٥٩٢ جراماً. (المترجم).

تلك الحركة المفاجئة، لكنه كان صغيراً، وأعماه الإخلاص الذى وهبه دون تردد للجراء التى لم تكن من صلبه. وأبقى على مسكته ولم يُرْخِها بينما كانت أسنان الشره مصوبة نحو خاصرته غير المحميَّة.

ومنذ تلك اللحظة تصارعا فى صمت. وكانت الشمس، الحمراء على الحافة الشرقية، شاحبة بجانب تألق الدم على الصخور. وكانت الجراء، التى جذبها إلى فوهة المغارة أول هجوم عنيف، تراقب الصراع المروع للحظة، ثم يصيبها الفزع من اهتياج القتال فترتمى على الأرض المظلمة وتقبع فى خوف مرتجف.

كانت النوارس هى التى نبهت أرنوك. فمن بعيد، وهى عائدة إلى جحرها منهكة فى دفء الصباح، رأتها تحلق وسمعت صيحاتها الصاخبة. وكانت النوارس تطير فى دوامات فوق الصخور حيث يقع الجحر، ورغم الإرهاق

الذى كانت أرنوك تعانى منه، وهب لها القلق الشديد قوة جديدة فانطلقت تعدو بكل ما لديها من سرعة. وهكذا وجدت القاتل، ممزقًا إلى قطع دموية قبل أن يبدأ القتال. ووجدت الذئب، وقد تمزق عنقه من كل جوانبه بشكل مهترئ، وكان جسده الساكن متصلبًا تحت الشمس المشرقة.

ظل الجسدان خامدين بالقرب من المغارة عندما ترددت، بعد أسبوع، أصوات الرجال مرة أخرى عبر ضفتَى النهر. وظلا ساكنين بالقرب من المغارة بعد وقت قصير، عندما انحنى شاب اسمه ماكتوك إلى الفتحة المظلمة ودفع يده بكل رقة تحت الجراء مخلوعة الفؤاد، بينما كانت أرنوك، شبه مضطربة بمشاعر قديمة، تقف مرتجفة بجانبه. كان ماكتوك رجل سهول، ويمكنه أن يقرأ أكثر مما لم يُكتب قط، لذلك فقد عرف ما كان يجب معرفته حول ما حدث وراء تلك الصخور المحطمة.

ولأنه عرف، فقد أخذ ابنه، فى أمسية ما فى آخر الصيف، على ضفة النهر ووضع يد الصبى على رأس الكلبة الذهبية وتحدث إليه بهذه الكلمات:

"ماكتوك، يا ولدى، سوف تصبح رجلاً وصياداً بعد وقت قريب، وسوف تعرف كل السهول الشاسعة اسمك ومهارتك. وسوف يكون لك فى تلك الأيام بعض الأصدقاء لمساعدتك فى الصيد، وأعظم من فيهم سوف تناديه دائماً بأرنوك، وعندئذ سيعرف أبى أننا تلقينا هديته، وسوف يرتاح لذلك. وفى تلك الأيام القادمة، يجب أن تسقط كل الحيوانات أمام رمحك وقوسك، باستثناء واحد فقط. فلا ترفع يدك أبداً طوال حياتك على ذلك الأبيض، على أماروك، الذئب، وبذلك يكون الناس قد أوفوا بدَينه عليهم".

التصحيح اللغوى: محمود عبد الرازق

الإشراف الفنى: حسن كامل